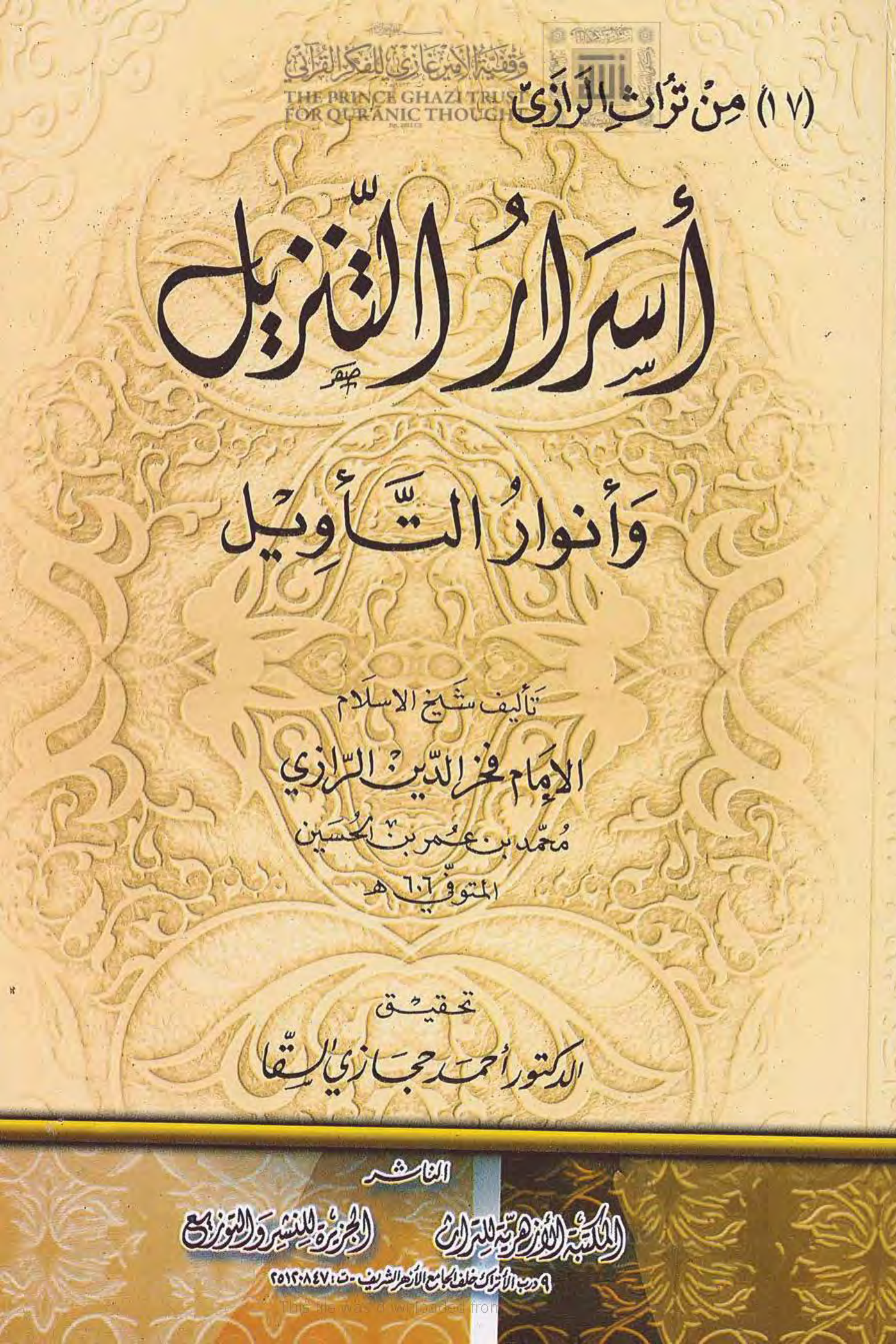

وقفية الأمير غازي للفكر القرآني
THE PRINCE GHAZI TRUST FOR QUR'ANIC THOUGHT
(١٧) من تراث الرازي
أسرار التنزيل
وأنوار التأويل
تأليف شيخ الاسلام
الإمام فخر الدين الرازي
محمد بن عمر بن الحسين
المتوفي ٦٠٦ هـ
تحقيق
الدكتور أحمد حجازي السقا
الناشر
المكتبة الأزهرية للتراث
الجزيرة للنشر والتوزيع
٩ درب الأتراك خلف الجامع الأزهر الشريف - ت: ٢٥١٢٠٨٤٧٠

أسرار التنزيل

(١٧) مِن تُراثِ الرازي

أسرار التنزيل

وأنوار التأويل

تأليف شيخ الإسلام

الإمام فخر الدين الرازي

محمد بن عمر بن الحسين

المتوفى ٦٠٦ هـ

تحقيق

الدكتور أحمد حجازي السقا

الناشر

المكتبة الأزهرية للتراث

اسرار التنزيل وانوار التاويل
فخر الدين الرازي
عقيدة ـ علم كلام

رقم الايداع : 13127/14
تدمك : 978-977-315-404-2

سنة الطبع
1437 ـ 2016

المكتبة الازهرية للتراث

9 درب الاتراك خلف الجامع الازهر الشريف
TEL: +202 25120847
FAX: +202 25128459
E-mail : elazharialeltorath@hotmail.com

مقدمة المحقق

مؤلف الكتاب

هو شيخ الإسلام محمد بن عمر بن الحسين الشافعي الأشعري. ولد في الخامس والعشرين من شهر رمضان سنة ثلاث وأربعين وخمسمائة، ثم تلقى العلم عن أبيه الإمام ضياء الدين خطيب «الري» صاحب الإمام البغوي. وكان ينعت شيخ الإسلام محمد بن عمر بلقب «ابن خطيب الري» نسبة إلى أبيه.

ومن مؤلفاته:

١ ـ التفسير الكبير في اثنين وثلاثين جزءا.

٢ ـ أسرار التنزيل وأنوار التأويل.

٣ ـ نهاية العقول.

٤ ـ المحصول في علم أصول الفقه.

٥ ـ المباحث المشرقية.

٦ ـ لباب الإشارات.

٧ ـ المطالب العالية من العلم الإلهي (٩ أجزاء مطبوع).

٨ ـ المعالم في أصول الفقه.

٩ ـ المعالم في أصول الدين.

١٠ـ الأربعين في أصول الدين.

١١ـ مناقب الامام الشافعي.

١٢ـ تأسيس التقديس.

١٣ـ شرح عيون الحكمة (٣ أجزاء مطبوع).

١٤ـ نهاية الإيجاز في دراية الإعجاز.

١٥ـ الخمسين في أصول الدين.

١٦ـ النبوات وما يتعلق بها [مطبوع. وهو جزء من المطالب العالية].

١٧ـ الأرواح العالية والسافلة [مطبوع. وهو جزء من المطالب العالية].

١٨ـ القضاء والقدر [جزء من المطالب العالية].

وحدث المؤرخون: أنه كان اذا ركب مشى معه نحو الثلثمائة مشتغل بطلب العلم، على اختلاف مطالبهم في التفسير والفقه والكلام والطب والأصول والحكمة. وغير ذلك. وكان له باع طويل في الوعظ وقوة تأثير نفسية، فيبكي سامعوه كثيراً من شدة وقع مواعظه في قلوبهم وسحرها في أفئدتهم.

ومن شعره:

فلو قنعت نفسي بميسور بلغة	لما سبقت في المكرمات رجالها
ولو كانت الدنيا مناسبة لها	لما استحقرت نقصانها وكمالها
ولا أرمق الدنيا بعين كرامة	ولا أتوقى سوءها واختلالها
وذاك لأني عارف بغنائها	ومستيقن ترحالها وانحلالها
أروم أمورا يصغر الدهر عندها	وتستعظم الأفلاك فنَّ وصالها

وانتقل الإمام فخر الدين الرازي إلى جوار ربه بـ«هراة»، في يوم الاثنين أول شوال من سنة ست وستمائة.

بسم الله الرحمن الرحيم

التقديم للكتاب

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على خاتم النبيين والمرسلين، وعلى آله وأصحابه أجمعين والتابعين لهم بخير وإحسان إلى يوم الدين.

أما بعد

فهذا كتاب «أسرار التنزيل وأنوار التأويل» للإمام الجليل فخر الدين الرازي المتوفى سنة ٦٠٦ هـ وهو كتاب يبين فيه معنى آيات في القرآن الكريم تدل على أنه كتاب الله الذي أنزله لهداية الناس إليه. وقد التزم في بيان المعاني مذهب الأشاعرة وأهل التصوف.

فالأشاعرة يقولون - على سبيل المثال - إن كلمة لا إله إلا الله تكفي في دخول الجنة، وأن العمل بالشرائع ليس جزءا من الدين. والخوارج والمعتزلة، يقولون: إن العمل بالشرائع جزء من الدين. وكلمة الإخلاص لا تكفي في دخول الجنة ما لم ينضم إليها العمل.

وأهل التصوف يروون النوادر في كتبهم. مثل:

روى[1] : أن يوسف عليه السلام أراد أن يتخذ وزيرا ، فجاءه جبريل عليه السلام فقال: إن الله يأمرك أن تتخذ فلانا وزيرا لك. فنظر إليه يوسف عليه السلام وكان في غاية الدناءة. فسأل جبريل عن السبب. فقال: إن له عليك حق الشهادة. إنه هو الذي شهد ﴿إن كان قميصه قُدَّ من قبل﴾ الآية. والإشارة: أن من شهد لمخلوق وجد وزارته في الدنيا، فمن شهد لله بالتوحيد والجلال، كيف لا يجد معرفته ورحمته في العقبى؟

واستدل المؤلف بأحاديث ضعيفة في الترغيب والترهيب. وهاك معنى ذلك: يقول ابن تيميـة في الجزء الثامن عشر من الفتاوى: « ما عليه العلماء من العمل بالحديث الضعيف في فضائل الأعمال، ليس معناه إثبات الاستحباب بالحديث الذي لا يحتج به، فإن الاستحباب حكم شرعي، فلا يثبت إلا بدليل شرعي. ومن خبر عن الله أنه يحب عملا من الأعمال من غير دليل شرعي، فقد شرع من الدين ما لم يأذن به الله. كما لو أثبت الإيجاب أو التحريم. ولهذا يختلف العلماء في الاستحباب، كما يختلفون في غيره، بل هو أصل الدين المشروع. وإنما مرادهم بذلك: أن يكون العمل مما قد ثبت أن مما يحبه الله، أو مما يكرهه الله بنص أو اجماع. كتلاوة القرآن والتسبيح والدعاء والصدقة والعتق والاحسان إلى الناس، وكراهة الكذب والخيانة. ونحو ذلك.

فإذا روي حديث في فضل بعض الأعمال المستحبة وثوابها، وكراهة بعض الأعمال وعقابها فمقادير الثواب والعقاب وأنواعه. إذا روي فيها حديث لا نعلم أنه موضوع جازت روايته والعمل به. بمعنى: أن النفس ترجو ذلك الثواب أو تخاف ذلك العقاب، كرجل يعلم أن التجارة تربح، لكن بلغه أنها تربح ربحا كثيراً. فهذا إن صدق، نفعه وإن كذب لم يضره، ومثال ذلك: الترغيب والترهيب بالاسرائيليات والمنامات، وكلمات السلف، والعلماء، ووقائع العلماء، ونحو ذلك مما لا يجوز إثبات حكم شرعي به، لا استحباب ولا

(١) أسرار التنزيل وأنوار التأويل.

غيره، ولكن يجوز أن يذكر في الترغيب والترهيب والترجية والتخويف. فما علم حسنه أو قبحه، بأدلة الشرع فإن ذلك ينفع ولا يضر، وسواء كان في نفس الأمر حقا أو باطلا. فما علم أنه باطل موضوع، لم يجز الالتفات إليه، فإن الكذب لا يفيد شيئاً، وإذا ثبت أنه صحيح أثبتت به الأحكام، وإذا احتمل الأمرين روي لإمكان صدقه ولعدم المضرة في كذبه. و«أحمد» إنما قال: «إذا جاء الترغيب والترهيب تساهلنا في الأسانيد» ومعناه: انما نروي في ذلك بالأسانيد، وإن لم يكن محدثوها من الثقات الذين يحتج بهم. وكذا قول من قال: يعمل بها في فضائل الأعمال. إنما العمل بما فيها من الأعمال الصالحة. مثل: التلاوة والذكر والاجتناب لما كره فيها من الأعمال السيئة. فإذا تضمنت أحاديث الفضائل الضعيفة تقديرا وتحديدا مثل صلاة في وقت معين لقراءة معينة أو على صفة معينة، لم يجز ذلك؛ لأن استحباب هذا الوصف المعين، لم يثبت بدليل شرعي، بخلاف ما لو روي فيه: «من دخل السوق فقال: لا إله إلا الله.. كان له كذا وكذا» فإن ذكر الله في السوق مستحب، لما فيه من ذكر الله بين الغافلين، كما جاء في الحديث المعروف: «ذاكر الله في الغافلين: كالشجرة الخضراء بين الشجر اليابس» فأما تقدير الثواب المروي فيه، فلا يضر ثبوته، ولا عدم ثبوته.

فالحاصل: أن هذا الباب يروى ويعمل به في الترغيب والترهيب، لا في الاستحباب، ثم اعتقاد موجبه وهو مقادير الثواب والعقاب، يتوقف على الدليل الشرعي»[1]

* * *

ويجب عرض الأحاديث كلها على القرآن لمعرفة الصحيح منها والضعيف، حتى ولو كانت في الصحيحين. وذلك لاستدلال عائشة رضي الله عنها على مخالفيها بقولها «حسبكم القرآن» وكذلك ترد أقوال المفسرين والمحدثين

---

(١) ج١٨ ص٦٥ - ٦٨ مجموع الفتاوى

والفقهاء إلى القرآن. فليس من معصوم من الخطأ إلا محمد رسول الله ﷺ.

والأحاديث النبوية على أربعة أنواع:

١ ـ نوع مفسر للقرآن. مثل أحاديث هيئات الصلاة.

٢ ـ ونوع موافق للقرآن. مثل أحاديث الأخلاق. فقد كان خلقه القرآن عليه السلام.

٣ ـ ونوع ينشىء أحكاما تشريعية ليس لها ذكر في القرآن مثل تحريم كل ذي ناب من السباع، وذي مخلب من الطيور.

٤ ـ ونوع يضاد القرآن في المعنى.

فالنوعان الأولان مقبولان، والنوعان الآخران هما محل الأخذ والرد بين العلماء.

وأهل الحديث يقولون: إن صحة السند تكفي في قبول الحديث وإذا ثبتت صحة الحديث بالسند، حتى ولو كان الراوي واحدا، فإنه يجب العمل به في العقائد وفي الفقه.

وفي عصرنا هذا نجد الشيخ محمد الغزالي الداعية الإسلامي الكبير ينادي بعرض الأحاديث كلها على القرآن. والقرآن ـ وليس السند ـ هو الذي يحكم على الحديث بالصحة والضعف. وله كلام طويل في هذا الشأن حري أن يكتب بماء الذهب.

ولكن السلفيين الحنابلة يقولون: إن عرض الأحاديث على القرآن سيلغي السنة المنشأة والمعارضة. ولذلك يرفضون عرض الأحاديث على القرآن. فابن قيم الجوزية يقول في الطرق الحكمية:

«فما من أحد يحتج عليه بسنة صحيحة تخالف مذهبه ونحلته، إلا ويمكنه أن يتشبث بعموم آية أو إطلاقها. ويقول: هذه السنة ـ مخالفة لهذا العموم

والإطلاق، فلا تقبل. حتى أن الرافضة ـ وهم الشيعة ـ سلكوا هذا المسلك بعينه في رد السنن الثابتة المتواترة. فردوا قوله ﷺ: «لا نورث ما تركناه صدقة» وقالوا: هذا حديث يخالف كتاب الله. قال تعالى: ﴿«يوصيكم الله في أولادكم للذكر مثل حظ الأنثيين﴾ وردت الجهمية ـ ويقصد بهم المعتزلة ـ ما شاء الله من الأحاديث الصحيحة في إثبات الصفات بظاهر قوله: ﴿ليس كمثله شيء﴾ وردت الخوارج من الأحاديث الأحاديث الدالة على الشفاعة وخروج أهل الكبائر من الموحدين من النار، بما فهموه من ظاهر القرآن. وردت الجهمية أحاديث الرؤية بما فهموه من ظاهر القرآن في قوله تعالى: ﴿لا تدركه الأبصار﴾ وردت القدرية ـ ويقصد بهم المعتزلة ـ أحاديث القدر، الثابتة، بما فهموه من ظاهر القرآن. وردت كل طائفة ما ردته من السنة بما فهموه من ظاهر القرآن.

فإما أن يطرد الباب في رد هذه السنن كلها، وإما أن يطرد الباب في قبولها، ولا يرد شيء منها لما يفهم من ظاهر القرآن. أما أن يرد ويقبل بعضها ونسبة المقبول إلى ظاهر القرآن كنسبة المردود، فتناقض ظاهر. وما من أحد رد سنة لما فهمه من ظاهر القرآن، إلا وقد قبل إضعافها، مع كونها كذلك»[1].

* * *

وعرض الأحاديث على القرآن هو المذهب الصحيح. لماذا؟

أ ـ لأن عائشة رضي الله عنها والصحابة قد أثر عنهم في الأحاديث الصحيحة أنهم كانوا يردُّون الحديث إلى القرآن. وهي قالت: «لا تدع كتاب ربنا لحديث أعرابي يبول على ساقيه».

ب ـ ولأن السلسلة الذهبية في الحديث وهي عن مالك عن نافع عن ابن

(١) الطرق الحكمية ص١٠٢.

عمر قد عمل أهل الأهواء والبدع مثلها، وهذا يدل على أن السند لا يكفي في صحة الحديث.

جـ ـ أن كثيراً من أهل الأهواء والبدع، انتحلوا أسماء الأئمة المحدثين في أكثر من مكان، وكذبوا على رسول الله ﷺ. كما هو معروف في قصة الإمام أحمد بن حنبل ويحيى بن معين مع قاص في مسجد الرصافة.

د ـ كان لأهل الأهواء والبدع غرض من الكذب على رسول الله ﷺ يقول الإمام ابن الصلاح رحمه الله: «الموضوع: هو المختلق المصنوع. اعلم: أن الحديث الموضوع شر الأحاديث الضعيفة، ولا تحل روايته لأحد علم حاله، في أي معنى كان، إلاَّ مقرونا ببيان وضعه، بخلاف غيره من الأحاديث الضعيفة التي يحتمل صدقها في الباطن، حيث جاز روايتها في الترغيب والترهيب...

فقد وضعت أحاديث طويلة يشهد بوضعها ركاكة ألفاظها ومعانيها...

والواضعون للحديث أصناف. وأعظمهم ضررا: قوم من المنسوبين إلى الزهد، وضعوا الحديث احتسابا ـ فيما زعموا ـ فتقبل الناس موضوعاتهم، ثقة بهم وركونا إليهم... الخ[1]».

هـ ـ والمراد بأهل الزهد في عبارة الإمام ابن الصلاح: أهل التصوف. ولنفترض أن متصوفا استدل على صحة معتقده في الاستغاثة بالموتى بأحاديث صحيحة السند في نظره، قد عملها له أشياخه وأحكموا عملها. وأن عدوًّا له استدلَّ على معتقده في عدم الاستغاثة بالموتى بأحاديث صحيحة السند في نظره، قد عملها له أشياخه وأحكموا عملها. وأيضاً: نفترض أشعريا وحنبليا وماتريدياً كل واحد منهم يستدل على صحة معتقده بحديث صحيح السند عنده. وأراد طالب حق لوجه الله وحده معرفة الحق مع من، من هؤلاء

(١) علوم الحديث ص٨٩ ـ ٩٠.

المختلفين؟ فكيف يعرف؟ أبالسند أم بالمتن؟ إنه لا يمكن المعرفة بالسند، لأن السند عند كل، معمول ومعدل وموثق غير مجرح كما عمل النصارى سلسلة متصلة وأثبتوا بها صحة قتل عيسى عليه السلام وصلبه ويدعون صحتها، وأنها متواترة. وهم في العالم أكثر من المسلمين واليهود. وما أغنت سلسلتهم المتصلة عنهم شيئاً حين كذبهم القرآن، وهو سلسلة سندهم ودعوى التواتر عندهم.

وتمكن المعرفة بالمتن في حالة عرضه على القرآن. فقد قال ابن عقيل: «لا تنفع ثقة الرواة اذا كان المتن مستحيلا، وصار هذا، كما لو أخبرنا جماعة من المعدلين بأن جمل البزاز دخل في خرم إبرة الخياط، فإنه لا حكم لصدق الرواة، مع استحالة خبرهم[1]».

* * *

ويرى الشيخ محمد الغزالي الداعية الإسلامي الكبير أن حديث الآحاد لا يصح لعاقل أن يستدل به في إثبات عقيدة أو نفي عقيدة. ويجوز هذا الشيخ الكبير أن يستدل به العاقل في الفقه إن صح وثبت. وأهل الحديث يخالفون فيجوزون الاستدلال بحديث الآحاد في العقائد وفي الفقه.

ومنهم من يشترط صفة «العدل» في الواحد الراوي، ومنهم من لا يشترط.

فشارح الطحاوية يقول: «وخبر الواحد إذا تلقته الأمة بالقبول، عملا به واعتقادا وتصديقا، يفيد العلم اليقين[2]» فهو لم يشترط العدالة في الراوي. والشيخ ابن حزم يشترط العدالة فيقول: «فقد ثبت يقينا: أن خبر العدل عن

---

(١) دفع شبه التشبيه لابن الجوزي ص٥٢.

(٢) ص٣٥٥ شرح العقيدة الطحاوية.

مثله، مبلغا إلى رسول الله ﷺ حق، مقطوع به، موجب للعمل والعلم معا»[1].

ورأي سيدنا وأستاذنا هو الصحيح. وذلك لأن صفة العدل مطلوبة في الشاهد على شيء من شؤون الدنيا، فأحرى أن تكون على الشيء في شأن من شؤون الدين. فقد قال تعالى: ﴿**وأشهدوا ذوي عدل منكم**﴾ وصفة العدل وإن تحريناها بدقة فائقة وعناية بالغة، لا يمكن أن تثبت لاحتمال أن يتظاهر إنسان بالعدل. وهو منافق، ولاحتمال أن يظهر بمظهر التقي الورع، ويكون رديئا إذا خلا بنفسه. هذا. مع منع القرآن من شهادة الواحد في قوله تعالى ﴿**شهيدين من رجالكم، فان لم يكونا رجلين فرجل وامرأتان، فمن ترضون من الشهداء**﴾ وإذا كان هذا المنع في شؤون الدنيا فأحرى به أن يكون في شؤون الدين.

★ ★ ★

ويقول المحدثون بالتعارض والترجيح بين الأحاديث.

أ ـ والتعارض: هو وجود حديثين مختلفين في معنى واحد.

ب ـ والترجيح: هو إسقاط الحديث، فلا يعمل به.

وأما موهم التعارض، فإنه يقال به في القرآن[2]، لا في الأحاديث النبوية.

وإذا وجد حديثان مختلفان في معنى واحد، وأمكن إزالة الخلاف ليعمل بكل واحد منهما، فهذا أفضل من الترجيح بينهما، وذلك لأن الترجيح هو الأخذ بأحدهما وترك الآخر. هذا كلام أهل الحديث. ثم إنهم قالوا: إن الحديثين المتعارضين في المعنى الواحد، لا بد أن يكون أحدهما فيه علة، ويسقطون الذي فيه العلة، ويبقون الآخر للعمل به. أي أنهم يرجحون

---

(١) الإحكام ج١ ص١٢٤.

(٢) راجع دفع إيهام الاضطراب عن آي الكتاب للشنقيطي.

بالاسقاط، ولا يجمعون بين المعنيين المتناقضين. وقد يجتهد بعضهم فيجمع بتأويل متعسف غير سائغ. ويقول: هذا أفضل من الترجيح. كما هو عند القرطبي المفسر في الحديثين الآتيين. ومثال ذلك:

أ - عن أم سلمة - رضي الله عنها - قالت: كنت عند رسول الله ﷺ وعنده ميمونة، فأقبل ابن أم مكتوم وذلك بعد أن أمرنا بالحجاب، فقال النبي ﷺ: «احتجبي منه» فقلنا: يا رسول الله أليس هو أعمى، لا يبصرنا ولا يعرفنا؟ فقال النبي ﷺ: «أفعميا‌وان أنتما؟ ألستما تبصرانه»؟

ب - روى البخاري أن فاطمة بنت قيس قال لها النبي ﷺ عندما طلقت طلاقا بائنا: «اعتدّي في بيت ابن أم مكتوم؛ فإنه رجل أعمى تضعين ثيابك ولا يراك»

ففي الحديث الأول: الأمر بالاحتجاب من العميان والمبصرين، وفي الحديث الثاني: إباحة النظر إلى العميان. فالحديثان متعارضان. ولا بد من اسقاط أحدهما بترجيح أحدهما على الآخر إذا لم يمكن التوفيق بينهما.

وإسقاط الحديث الأول واجب. وذلك لأن في سنده نبهان مولى أم سلمة وهو مجهول، ولم يوثقه غير ابن حبان. والإمام الذهبي ذكره في الضعفاء في كتابه المغني.

* * *

وعزَّ على بعض المحدثين إسقاط أحاديث بحجة التعارض والتناقض ولذلك لجأوا إلى القول بأن الحديثين المتعارضين صحيحان. وأحدهما قاله النبي أولا، ثم عنَّ له نسخه فنسخه. وقولهم هذا أفضل من القول بالإسقاط. ولكن النتيجة واحدة. وهو تفضيل حديث على حديث ومثاله: فهي النبي ﷺ عن ادخار لحوم الأضاحي بعد ثلاث. ثم إباحته.

* * *

الاحتجاج بحديث الكذابين

وإذا روى الراوي حديثا، وتبين أن الراوي غير ضابط وغير عدل. فإن أهل الحديث منهم من يقول: إنه لا يحتج بحديثه في الأحكام الفقهية والعقائدية ويحتج به في فضائل الأعمال. ومنهم من يقول: لا يحتج بحديثه مطلقا، لا في الفقه ولا في العقائد ولا في فضائل الأعمال.

فابن رجب الحنبلي في شرح علل الترمذي يقول: «كل من روي عنه حديث ممن يتهم، أو يضعف لغفلته، أو لكثرة خطئه. ولا يعرف ذلك الحديث إلا من حديثه، فلا يحتج به»:

يقول ما نصه: «أما ما ذكره الترمذي.

فمراده: أنه لا يحتج به في الأحكام الشرعية، والأمور العملية، وإن كان قد يروي حديث بعض هؤلاء في الرقائق والترغيب والترهيب. فقد رخص كثير من الأئمة في رواية الأحاديث الرقاق ونحوها عن الضعفاء. منهم: ابن مهدي وأحمد بن حنبل. وقال رواد بن الجراح: سمعت سفيان الثوري يقول: لا تأخذوا هذا العلم في الحلال والحرام، إلا من الرؤساء المشهورين بالعلم، الذين يعرفون الزيادة والنقصان. ولا بأس بما سوى ذلك من المشائخ، وقال أحمد في ابن اسحق مؤلف السيرة النبوية: يكتب عنه المغازي وشبهها»[1].

* * *

وهذا الكتاب «أسرار التنزيل وأنوار التأويل» هو التفسير الصغير للقرآن للإمام فخر الدين الرازي. وقد رأيته مطبوعا بدون مقدمة. فاجتهدت في ضبطه واعتنيت بتنظيمه وإخراجه. وكتبت هذا التقديم للتنبيه على أن كلام

---

(١) شرح علل الترمذي لابن رجب ج١ ص٧٢.

المفسرين يرد إلى القرآن، كما ترد الأحاديث. فليس من معصوم إلا محمد ﷺ.

والله أسأل أن يوفقنا لخدمة العلم والدين.

د/أحمد حجازي أحمد السقا

أَسْرَار التَّنْزِيل
وَأَنْوَار التَّأْوِيل

تأليف شيخ الاسلام
الإمام فخر الدين الرازي
محمد بن عمر المتوفى سنة ٦٠٦هـ

تصدير

بسم الله الرحمن الرحيم

هذا كتابنا يشتمل على:

١ ـ أسرار كلمة لا إله إلا الله.

٢ ـ فوائد كلمة لا إله إلا الله.

٣ ـ أسماء كلمة التوحيد.

٤ ـ الأشياء التي شبه الله تعالى بها كلمة التوحيد.

٥ ـ شرح المباحث المتعلقة بكلمة لا إله إلا الله.

٦ ـ فضل المؤمن.

٧ ـ الأحكام الفقهية المتفرعة على قولنا: لا إله إلا الله.

٨ ـ النطق بالشهادتين حال الموت.

٩ ـ النجاة من الغم.

١٠ـ أن عقول الخلق قاصرة عن معرفة الله تعالى.

الفصل الاول

في

أسرار كلمة لا إله إلا الله

قال الله سبحانه وتعالى لرسوله: ﴿فاعلم: أنه لا إله إلا الله. واستغفر لذنبك وللمؤمنين والمؤمنات﴾.

اعلم: أن الله تعالى قدم الأمر بمعرفة التوحيد، على الأمر بالاستغفار. والسبب فيه: أن معرفة التوحيد إشارة إلى علم الأصول، والاشتغال بالاستغفار إشارة إلى علم الفروع. والأصل يجب تقديمه على الفرع، فإنه ما لم يعلم وجود الصانع؛ امتنع القيام بطاعته وخدمته. وهذه الدقيقة معتبرة في آيات كثيرة.

أولها: إن إبراهيم - عليه السلام - لما اشتغل بالدعاء قدم المعرفة على الطاعة. فقال: ﴿رب هب لي حكماً، وألحقني بالصالحين﴾ فقوله: (هب لي حكماً) إشارة إلى استكمال القوة النظرية بمعرفة حقائق الأشياء، وقوله: (وألحقني بالصالحين) إشارة إلى استكمال القوة العملية بالاجتناب عن طرفي الإفراط والتفريط. فقدم العلم على العمل.

وثانيها: إنه تعالى لما أوحى إلى موسى - عليه السلام - راعى هذا الترتيب. فقال: ﴿وأنا اخترتك فاستمع لما يوحى. إنني أنا الله. لا إله إلا أنا فاعبدني. وأقم الصلاة لذكري﴾. فقوله: (لا إله إلا أنا) إشارة إلى علم الأصول وقوله: (فاعبدني) إشارة إلى علم الفروع.

وثالثها: أن عيسى - عليه السلام - لما أنطقه الله تعالى في وقت الطفولية قال: ﴿إني عبد الله. آتاني الكتاب﴾ فقوله: (إني عبدالله) إشارة إلى علم الأصول. وقوله: (آتاني الكتاب) إشارة إلى علم الفروع، فإن احتياجه إلى الكتاب إنما يكون في معرفة الأحكام والشرائع، لا في معرفة ذات الله تعالى وصفاته.

ورابعها: الآية التي نحن فيها.

ولا نزاع في أن أفضل الأنبياء والرسل - عليهم السلام - هؤلاء الأربعة، ولما ثبت: أن الله تعالى قدم الأمر بمعرفة الأصول على معرفة الفروع، في حق هؤلاء الأنبياء المكرمين، ثبت: أن الحق الصحيح الصريح ليس إلا ذلك. ومما يؤكد ذلك وجوه أخر:

الوجه الأول: أن أكثر المفسرين أجمعوا: على أن أول آية أنزلها الله تعالى على محمد ﷺ قوله: ﴿اقرأ باسم ربك الذي خلق. خلق الإنسان من علق. اقرأ وربك الأكرم. الذي علم بالقلم. علم الإنسان ما لم يعلم﴾. وهذه الآية مشتملة على دلائل التوحيد. وذلك لأن أظهر الدلائل الدالة على وجود الصانع الحكيم: تولد الإنسان من النطفة. ثم إنه تعالى نبَّه في هذه الآية على لطيفة - لا يتأتَّى شرحها إلا في معرض سؤال وجواب - [والسؤال: هو] إن قال قائل: لا بد من رعاية النظم بين أجزاء الكلام، وههنا ذكر أنه تعالى يولد الإنسان من النطفة، فقال: ﴿الذي خلق. خلق الإنسان من علق﴾. ثم ذكر بعده أنه ﴿علم الإنسان ما لم يعلم﴾. فأي مناسبة بين هذين الأمرين؟

والجواب: أن أخس مراتب الإنسان وأدناها: العلقة، وذلك لأنه يستقذرها كل أحد. وأعلى المراتب وأشرفها: كون الإنسان عالما محيطا بحقائق الأشياء، كأنه قال: عبدي، تأمل إلى أول حالك حين كنت علقة - وهي أخس الأشياء - وإلى آخر حالك حين صرت ناطقا عالما بحقائق الأشياء - وهو أشرف المراتب - حتى يظهر لك أنه لا يمكن الانتقال من تلك الحالة

الخسيسة إلى هذه الدرجة الرفيعة الشريفة، إلا بتدبير أقدر القادرين، وأحكم الحاكمين - سبحانه وتعالى عما يقول الظالمون -.

الوجه الثاني: إنه تعالى مدح المؤمنين في سورة البقرة من أول السورة إلى قوله: ﴿**أولئك هم المفلحون**﴾. وذم الكافرين في آيتين: أولهما قوله: ﴿**إن الذين كفروا**﴾ إلى قوله: ﴿**ولهم عذاب عظيم**﴾ ثم ذم المنافقين في ثلاث عشرة آية: من أول قوله تعالى: ﴿**ومن الناس من يقول آمنا بالله**﴾ إلى قوله: ﴿**يا أيها الناس اعبدوا ربكم**﴾ ثم لما مدح المؤمنين وذم الكافرين والمنافقين؛ كأنه قيل: هذا المدح والذم لا يستقيمان إلا بتقديم الدلائل على إثبات التوحيد والنبوة والمعاد. فإن أصول الإسلام هي هذه الثلاثة. فلهذا السبب بين الله تعالى صحة هذه الأصول بالدلائل القاطعة.

بدأ أولا بإثبات الصانع وتوحيده، وبين ذلك بخمسة أنواع من الدلائل:

أولها: أنه استدل على التوحيد بأنفسهم، وإليه الإشارة بقوله: ﴿**اعبدوا ربكم الذي خلقكم**﴾.

وثانيها: بأحوال آبائهم وأجدادهم، وإليه الإشارة بقوله: ﴿**والذين من قبلكم**﴾.

وثالثها: بأحوال أهل الأرض. وإليه الإشارة بقوله: ﴿**الذي جعل لكم الأرض فراشا**﴾.

ورابعها: بأحوال أهل السماء، وإليه الإشارة بقوله: ﴿**والسماء بناء**﴾.

وخامسها: بالأحوال الحادثة المتعلقة بالسماء والأرض. وإليه الإشارة بقوله: ﴿**وأنزل من السماء ماء فأخرج به من الثمرات رزقاً لكم**﴾ فإن السماء كالأب، والأرض كالأم: ينزل المطر من صلب الماء إلى رحم الأرض، فيتولد منها أنواع النبات.

ولما ذكر هذه الدلائل الخمسة، رتب المطلوب عليها فقال: ﴿**فلا تجعلوا**

لله أندادا وأنتم تعلمون﴾ .

وذلك : أن هذه الدلائل تدل على وجود الصانع من وجه ، وعلى كونه تعالى واحدا من وجه آخر ، فإنها من حيث أنها حدثت مع جواز ألا تحدث ، ومع جواز أن تحدث على خلاف ما حدثت به ، يدل على وجود الصانع القادر . ومن حيث أنها حدثت لا على وجه الخلل والفساد ، دلت على وحدة الصانع القادر ، كما قال تعالى : ﴿لو كان فيهما آلهة إلا الله لفسدتا﴾ . ولهذا السبب ذكر بعد تلك الدلائل ، ذينك المطلوبين ، أحدهما : إثبات الصانع . والثاني ، إثبات كونه واحدا . لأن قوله تعالى : ﴿فلا تجعلوا لله أندادا﴾ يشتمل على إثبات الإله ، وعلى إثبات كونه واحدا .

ثم ههنا لطيفة أخرى مرعية في هذه الآية : وهي : أن الترتيب الحسن المفيد في التعليم : أن يقع الابتداء في التعليم من الأظهر فالأظهر ، مرتقيا إلى الأخفى فالأخفى . وهذه الدقيقة مرعية في هذه الآية . وذلك أنه سبحانه وتعالى قال : ﴿اعبدوا ربكم الذي خلقكم﴾ . فجعل استدلال كل عاقل بنفسه مقدما على جميع الاستدلالات ، لأن اطلاع كل أحد على أحوال نفسه أتم من اطلاعه على أحوال غيره [ومن اطلع] : فسيجد بالضرورة من نفسه أنه تارة يكون مريضا ، وتارة صحيحا ، وتارة ملتذا ، وتارة متألما ، وتارة شاباً ، وتارة شيخا . والانتقال من بعض هذه الصفات إلى غيرها ، ليس باختيار أحد من البشر .

وأيضاً : فقد يجتهد في طلب كل شيء ولا يجد ، وكثيرا ما يكون غافلا عنه فيحصل ، وعند ذلك يعلم كل أحد عند نقض العزائم وفسخ الهمم : أنه لا بد من مدبر ، يكون تدبيره فوق كل تدبير البشر .

وربما اجتهد العاقل الذكي في الطلب فلا يجد ، والغر الغبي يتيسر له ذلك المطلوب . وعند هذه الاعتبارات يلوح له صدق قول الشافعي رضي الله عنه :

ومن الدليل على القضاء وكونه ، بـؤس اللبيب، وطيب عيش الأحمق.

ويظهر له: أن هذه المطالب إنما تحصل وتتيسر، بناء على قسمة قسام لا يمكن منازعته ولا مغالبته، كما قال سبحانه وتعالى: ﴿**نحن قسمنا بينهم معيشتهم**﴾.

ثم إن هذه الاعتبارات غير محصورة، فتارة كما في قوله تعالى: ﴿**أَمَّنْ يجيب المضطر إذا دعاه**﴾؟ وأخرى كما في قوله: ﴿**قل: من يكلؤكم بالليل والنهار**﴾؟ وبالجملة: فلما كان اطلاع كل أحد على أحوال نفسه؛ أشد من اطلاعه على أحوال غيره؛ لا جرم قدم هذا الدليل على سائر الدلائل.

ثم هذه المراتب يتلوها مرتبة أخرى، وهي: علم كل أحد بأحوال آبائه وأجداده وأهل بلده. ثم هذه المرتبة الثانية تتلوها مرتبة ثالثة، وهي: معرفة الإنسان بأحوال الأرض التي هي مسكن الخلائق، فإنها مختلفة الأجزاء، كما قال: ﴿**وفي الأرض قطع متجاورات**﴾. وقال أيضاً: ﴿**ومن الجبال جدد بيض، وحمر، مختلف ألوانها وغرابيب سود**﴾ ثم هذه المرتبة الثالثة تتلوها مرتبة رابعة وهي: العلم بأحوال الأفلاك، فإن بعضها يخالف البعض في العلو والسفل، والصغر والكبر، والبطء والسرعة، واختلاف أحوال الكواكب المذكورة فيها، كما قال: ﴿**كل في فلك يسبحون**﴾ وقال: ﴿**رب المشرق والمغرب**﴾ وقال: ﴿**رب المشرقين ورب المغربين**﴾. وقال: ﴿**فلا أقسم برب المشارق والمغارب**﴾ وقال: ﴿**والشمس والقمر والنجوم مسخرات بأمره**﴾. وقال: ﴿**تبارك الذي جعل في السماء بروجاً وجعل فيها سراجاً وقمراً منيراً**﴾. وقال في سورة نوح: ﴿**ألم تروا كيف خلق الله سبع سموات طباقاً وجعل القمر فيهن نوراً**﴾ وقال في سورة يس: ﴿**لا الشمس ينبغي لها أن تدرك القمر ولا الليل سابق النهار. وكل في فلك يسبحون**﴾. وقال: ﴿**فلا أقسم بالخنس الجوار الكنَّسِ**﴾.

ثم بعد هذه المرتبة الرابعة، مرتبة خامسة، وهي الأحوال المنزلة من السماء

إلى الأرض، وهي نزول المطر من صلب السماء، ووقوعه في رحم الأرض، ثم بعد ذلك يحدث في الأرض الواحدة، أنواع من النبات. بحيث يخالف كل واحد منها صاحبه في الشكل والطعم والخاصية. فمنه ما يكون قوتاً، ومنه ما يكون فاكهة، ومنه ما يكون دواء، ومنه ما يكون إداماً، ومنه ما يكون سماً، ومنه ما يكون علفاً، لسائر الحيوانات. فذكر في تفصيل المطعومات قوله: ﴿أنا صببنا الماء صباً، ثم شققنا الأرض شقا، فأنبتنا فيها حباً وعنباً وقضباً، وزيتوناً ونخلا، وحدائق غلبا، وفاكهة وأبا. متاعاً لكم ولأنعامكم﴾. وقال: ﴿إن الله فالق الحب والنوى﴾.

بل إذا نظرت إلى ورقة واحدة من أوراق الورد وجدت أن أحد وجهيها في غاية الحمرة، والوجه الآخر في غاية الصفرة. مع أنها تكون في غاية الرقة، وقلة الثخانة، ونحن نعلم بالضرورة: أن نسبة تأثير الكواكب وحركات الأفلاك والطبائع، إلى كل واحد من وجهي تلك الورقة الرقيقة جداً من الورد، بنسبة واحدة. فاختصاص أحد وجهي تلك الوردة بالحمرة، والآخر بالصفرة، لا بد وأن يكون لأجل القادر المختار الذي يفعله بالعلم والقدرة، لا بالعلية والطبيعة.

وإذا عرفت ذلك، ظهر لك: أن الله تعالى في ترتيب هذه الدلائل الخمسة، وتقديم بعضها على بعض: حكمة بالغة، وأسرارا مرعية. فسبحان من لا نهاية لعلمه، ولا غاية لحكمته.

ثم إن الله تعالى لما بين دلائل إثبات الصانع ووحدانيته، أردف هذه المسألة بمسألة إقامة الدلالة على نبوة محمد ﷺ [فقال]: ﴿وإن كنتم في ريب مما نزلنا على عبدنا. فأتوا بسورة من مثله﴾. وذلك لأن المتحدى به، وقع بكل القرآن في قوله: ﴿قل: لئن اجتمعت الإنس والجن على أن يأتو بمثل هذا القرآن. لا يأتون بمثله. ولو كان بعضهم لبعض ظهيرا﴾ ولما عجزوا عن معارضة كل القرآن، أتبعه بالتحدي بعشر سور من القرآن.

فقال: ﴿فأتوا بعشر سور مثله مفتريات﴾. ولما عجزوا عنه، أتبعه بالتحدي بسورة واحدة، فقال: ﴿فأتوا بسورة من مثله﴾. ولما عجزوا أتبعه بالتحدي بآية، فقال: ﴿فليَأْتُوا بحديث مثله﴾. فلما عجزوا عنه مع توافر الدواعي: ظهر كونه معجزاً باهراً، وبرهاناً قاهراً. ثم إنه أتبع هذه المسألة بمسألة المعاد، في قوله: ﴿وبَشِّرِ الذين آمنوا وعملوا الصالحات: أن لهم جنات تجري من تحتها الأنهار﴾. كأنه قيل: إنما قدمنا مدح المؤمنين وذم الكافرين والمنافقين [ليعلم المحسن والمسيء عاقبتها]! لو لم يكن معاد يجد المحسن ثمرة إحسانه، ويجد المسيء عاقبة إساءته - لم يكن ذلك لائقاً بحكمته. وهذا هو المراد من قوله: ﴿ليجزي الذين أساءوا بما عملوا، ويجزي الذين أحسنوا بالحسنى﴾ وقال في سورة طه: ﴿وأقم الصلاة لذكري إن الساعة آتية أكاد أخفيها، لتجزى كل نفس بما تسعى﴾. وقال في [سورة] ص: ﴿أم نجعل الذين آمنوا وعملوا الصالحات، كالمفسدين في الأرض. أم نجعل المتقين كالفجار﴾؟

فظهر بما ذكرنا: أنه تعالى لم يذكر في أول كتابه إلا دلائل التوحيد والنبوة والمعاد. وثبت أنه لا بد من تقديم الأصول على الفروع، ولهذا السبب قدم الأمر بالتوحيد على الأمر بالاستغفار، فقال: فاعلم: أنه لا إله إلا الله، واستغفر لذنبك﴾.

الوجه الثالث في تقرير هذا الأصل: أنه تعالى قال في أول سورة النحل: ﴿ينزل الملائكة بالروح من أمره، على من يشاء من عباده: أن أنذروا أنه لا إله إلا أنا فاتقون﴾ فقوله: ﴿لا إله إلا أنا﴾ إشارة إلى علم الأصول. وقوله: ﴿فاتقون﴾ إشارة إلى علم الفروع.

الوجه الرابع: إن موسى عليه السلام لما ادعى الرسالة عند فرعون قال له فرعون: ﴿وما رب العالمين﴾؟ يعني: أن رسالتك متفرعة على إثبات أن للعالم إلهاً، فما الدليل عليه؟ ثم إن موسى عليه السلام لم ينكر [عليه] هذا

السؤال، بل اشتغل بذكر الدلائل على وجود الصانع، فقال: ﴿**ربكم ورب آبائكم الأولين**﴾. فاستدل على وجود الصانع أولاً: بأحوال نفسه، وثانياً: بأحوال آبائه، وهو نظير قوله في سورة البقرة: ﴿**اعبدوا ربكم الذي خلقكم، والذين من قبلكم**﴾.

فظهر بما ذكرنا: وجوه الفائدة في أنه تعالى ذكر أولاً قوله: (فاعلم أنه لا إله إلا الله). وذكر ثانياً قوله: (واستغفر لذنبك). والله أعلم بحقائق كتابه.

فهذا ما يتعلق بالدلائل القرآنية الدالة على [وجوب] تقديم علم الأصول على علم الفروع.

ويؤكد هذا المعنى بعشر حجج أخرى:

الأولى: وهي أن شرف العلم بشرف المعلوم، ومهما كان المعلوم أشرف، كان العلم الحاصل به أشرف، ولما كان أشرف المعلومات ذات الباري تعالى وصفاته، وجب أن يكون معرفته وتوحيده أشرف العلوم.

الحجة الثانية: إن العلم إما أن يكون دينياً، أو يكون غير ديني. ولا شك أن العلم الديني أشرف من غير الديني. وأما العلم الديني فإما أن يكون علم الأصول أو ما عداه. أما ما عدا علم الأصول فإن صحته متوقفة على صحة علم الأصول، لأن المفسر إنما يبحث عن معاني كلام الله تعالى، وذلك فرع على معرفة الصانع المختار المتكلم. وأما المحدّث فإنما يبحث عن كلام رسول الله ﷺ، وذلك فرع على إثبات نبوته. والفقيه يبحث عن أحكام الله تعالى، وذلك فرع على ثبوت التوحيد والنبوة. فثبت: أن هذه العلوم مفسرة إلى علم الأصول. وظاهر: أن علم الأصول غني عنها بأسرها، فوجب أن يكون علم الأصول أشرف.

الحجة الثالثة: إن شرف الشيء قد يظهر بواسطة خساسة ضده، وكلما كان ضده شيئاً أخس، كان هو أشرف، ولا شك أن ضد علم الأصول هو

الكفر والبدعة ـ وهما من أخس الأشياء ـ فوجب أن يكون علم الأصول من أشرف العلوم.

الحجة الرابعة: إن شرف العلم تارة يكون لشرف موضوعه، وتارة لشدة الحاجة إليه، وتارة لقوة براهينه ودلائله، وذلك: أن علم الهيئة أشرف من علم الطب، مع أن الحاجة إلى الطب أشد، وعلم الحساب أشرف منهما، من حيث أن موضوع علم الهيئة أشرف من موضوع علم الطب. وإن كان علم الطب أشرف من حيث أن براهين هذا العلم أقوى وعلم الأصول مجتمع لهذه الخصال[1].

وأما شرف هذا الموضوع: فذلك لأن المبحوث عنه: ذات الله تعالى وصفاته، وقدرته وعظمته، ولا شك في أنه أشرف، وأما شدة الحاجة إليه فظاهر لأن الحاجة إليه، إما في الدين وإما في الدنيا.

أما في الدين: فلأن من عرف هذه المطالب يستحق الثواب العظيم، ويتخلص من العقاب الأليم، ويصير من زمرة الملائكة المقربين، في جوار رب العالمين. ومن جهلها صار محروما من الثواب العظيم، مستوجبا للعقاب الأليم، وصار من زمرة الأبالسة والشياطين، وبقي في دركات الضلالة أبد الآبدين، ودهر الداهرين.

وأما في الدنيا: فلأن معظم مصالح العالم إنما تنتظم بسبب الرغبة في الثواب؛ والرهبة من العقاب، وإلا لوقع الهرج والمرج في العالم.

وأما قوة براهين هذا العلم: فلأن براهينه مركبة من المقدمات البديهية الضرورية، وهي أقوى العلوم والمعارف.

فثبت: أن علم الأصول مستجمع خصال الشرف، فوجب أن يكون أشرف العلوم.

الحجة الخامسة: إن هذا العلم لا يتطرق إليه النسخ والتغيير، ولا يختلف

---

(١) أي: يجمع الحاجة إليه وشرف الموضوع وقوة البراهين.

باختلاف النواحي والأمم، بخلاف سائر العلوم، فوجب أن يكون أشرف العلوم.

الحجة السادسة: إن الإنسان لا يكون من أهل النجاة والدرجات إلا مع هذا العلم، وقد يكون من أهل النجاة، وإن لم يعلم شيئاً من الفقه أصلا البتة.

أما أنه لا بد في النجاة من علم الأصول، فلأن الجاهل بالله البتة لا يكون من أهل النجاة بالإجماع. وأما أنه قد تحصل النجاة بدون الفقه، فلأن الإنسان قبل البلوغ لا يكون مكلفا بشيء من الأعمال، فإذا بلغ وقت الضحوة الكبرى، ففي هذه الساعة لم يجب عليه شيء من الصلوات والزكوات والصيامات وسائر العبادات. فلو مات في هذه الساعة مع المعرفة والتوحيد؛ لقي الله مؤمنا حقا. ولو قدرنا أن هذا الذي بلغ كان امرأة، ثم لما بلغت حاضت، وبقيت مدة أخرى في البلوغ، وهي غير مكلفة لا بالصلاة ولا بالقراءة، فإذا انقضى زمان حيضها وماتت، فهي قد لقيت حضرة الله مؤمنة حقا. فعلمنا: أن النجاة، واستيجاب الدرجات؛ لا يتوقف على الفقه، وهو [أي الفقه] موقوف على علم الأصول.

الحجة السابعة: إن الآيات المشتملة على دلائل علم الأصول. أشرف من الآيات المشتملة على دلائل علم الفروع، بدليل أنه قد جاء في فضيلة ﴿قل هو الله أحد﴾ و﴿آمن الرسول﴾ وآية الكرسي، و﴿أحل الله البيع﴾ و﴿يا أيها الذين آمنوا إذا تداينتم بدين﴾ الآية. ولذلك فإن الزهاد والعباد يواظبون في شرائف الأوقات على قراءة هذه الآيات، المشتملة على الإلهيات، دون الآيات المشتملة على الأحكام.

الحجة الثامنة. إن الآيات الواردة في الأحكام الشرعية: أقل من ستمائة آية، وأما اللواتي في بيان التوحيد والرد على عبدة الأوثان وأصناف المشركين وفي إثبات النبوات والمعاد، ومسألة القضاء والقدر: فكثيرة. وأما الآيات الواردة في القصص، فالمقصود منها: إما التوحيد، وإما النبوة. أما [على]

التوحيد فهو: الاستدلال على قدرة الله وعظمته وحكمته، كما قال: ﴿لقد كان في قصصهم عبرة لأولي الألباب ما كان حديثا يفترى﴾ وأما على النبوة فمن وجهين:

الأول: [أنه يذكر القصة وما كان عالما بها من قبل أن يذكرها. لا هو ولا قومه] كما قال في سورة الشعراء بعد ذكر القصص ﴿وإنه لتنزيل رب العالمين نزل به الروح الأمين. على قلبك لتكون من المنذرين﴾[٢]. ووجه الاستدلال: أنه عليه السلام لما لم يتعلم علما، ولم يقرأ كتاباً، ولم يتتلمذ لأستاذ، استحال منه رواية القصص إلا عن وحي الله وتنزيله.

والثاني: أنه يذكر القصة الواحدة مرارا مختلفة بألفاظ مختلفة، وكل ذلك [بألفاظ] متشابهة في الفصاحة، مع أن الفصيح إذا ذكر القصة الواحدة مرة واحدة بالألفاظ الفصيحة، عجز عن ذكرها بعينها مرة أخرى بالألفاظ الفصيحة، فيستدل بفصاحة الكل: على كونها من عند الله، لا من عند البشر فدل [ذلك] على أن معظم القرآن في علم الأصول.

ولنشر إلى معاني الدلائل:

أما دلائل التوحيد: فتارة بانخلاق الإنسان من النطفة. والله تعالى ذكر هذا الدليل أكثر من ثمانين مرة في القرآن. وتارة بدلائل الآفاق، وهي أحوال الأرض والسماء والهواء والنبات، وهي أظهر من أن تحتاج إلى الشرح.

وأما الدلائل الدالة على الصفات: فنقول:

أما الذي يدل على العلم: فقوله تعالى: ﴿إن الله لا يخفى عليه شيء في الأرض ولا في السماء﴾ أردفه بقوله: ﴿هو الذي يصوركم في الأرحام كيف يشاء﴾. وهذا هو دليل المتكلمين، فإنهم يستدلون بإحكام الأفعال وإتقانها على علم الفاعل، وههنا استدل سبحانه بتصوير الصور في ظلمات الأرحام على كون الفاعل عالما. وقال أيضا: ﴿ألا يعلم من خلق؟ وهو

اللطيف الخبير﴾ وهو غني عن تلك الدلالة. وقال: ﴿وعنده مفاتح الغيب لا يعلمها إلا هو﴾. وهذا التنبيه للدلالة على كونه تعالى عالما بكل المعلومات، لأنه تعالى يخبر عن المغيبات فتقع تلك الأشياء على وفق ذلك الخبر، وذلك يدل على كونه عالما بكل المغيبات.

وأما صفة القدرة، فكل ما ذكر الله تعالى في القرآن من الثمرات المختلفة، والحيوانات المختلفة، مع استواء تأثير الطبائع والأفلاك، فإنه يدل على صفة القدرة. وسيجيء الاستقصاء في هذه الدلائل القرآنية.

الحجة التاسعة: إنه تعالى حكى عن أكثر الأنبياء- عليهم السلام - أنهم كانوا طول عمرهم مشتغلين بهذه الدلائل. ولنذكر ما ينبه على المقصود:

أما الملائكة عليهم السلام فإنهم لما قالوا: ﴿أتجعل فيها من يفسد فيها ويسفك الدماء﴾. فكأن المراد أنه خلق هؤلاء سببا للشر والفتنة، وذلك قبيح، والحكيم لا يفعل القبيح. فأجابهم الله تعالى بقوله: ﴿إني أعلم ما لا تعلمون﴾. والمعنى - والله أعلم -: إني لما كنت عالما بكل المعلومات، كنت قد علمت في خلقهم وإيجادهم حكمة لا تعلمونها أنتم. فلما سمعوا ذلك، سكتوا.

وأما مناظرة الله مع إبليس. فالقرآن ناطق بها.

وأما الأنبياء عليهم السلام فاولهم آدم عليه السلام، وقد أظهر الله تعالى الحجة على فضله بأن أظهر علمه على الملائكة، وذلك محض الاستدلال.

وأما نوح عليه السلام فقد حكى الله تعالى عن الكفار أنهم قالوا: ﴿يا نوح قد جادلتنا فأكثرت جدالنا﴾. ومعلوم أن مجادلة الرسول مع الكفار لا تكون في تفاصيل الأحكام الشرعية، فلم يبق إلا أنها في التوحيد والنبوة. وأيضاً: فإنه عليه السلام لما أمرهم بالاستغفار في قوله: ﴿استغفروا ربكم إنه كان غفارا﴾ ذكر في الحال ما يدل على التوحيد. فقال: ﴿ألم تروا

كيف خلق الله سبع سموات طباقا وجعل القمر فيهن نورا. وجعل الشمس سراجا﴾؟.

وأما إبراهيم عليه السلام، فالاستقصاء في شرح أحواله يطول في هذا الباب، وله مقامات:

أولها: مع نفسه، وهو قوله: ﴿فلما جن عليه الليل رآى كوكبا قال هذا ربي﴾ إلى آخر الآية. وهذه طريقة المتكلمين. فإنه استدل بأفولها على حدوثها، ثم استدل بحدوثها على وجود مُحْدِثِها. كما أخبر الله تعالى بقوله: ﴿يا قوم إني بريء مما تشركون. إني وجهت وجهي للذي فطر السموات والأرض حنيفاً﴾ ثم إن الله تعالى عظم شأنه بسبب ذلك، فقال: ﴿وتلك حجتنا آتيناها إبراهيم على قومه. نرفع درجات من نشاء﴾.

وأيضاً: ذكر في وقت دعائه ما هو محض الاستدلال. وهو قوله: ﴿الذي خلقني فهو يهدين. والذي هو يطعمني ويسقين﴾ إلى آخر الآيات.

وثانيها: مناظرة إبراهيم مع أبيه، وهي قولـه: ﴿يـا أبـت لم تعبـد مـا لا يسمع ولا يبصر ولا يغني عنك شيئا﴾؟ إلى آخر الآيات.

وثالثها: حاله مع قومه، تارة بالقول. وأخرى بالفعل. أما القول فقوله: ﴿ما هذه التماثيل التي أنتم لها عاكفون﴾؟ وأما بالفعل فقوله تعالى: ﴿فجعلهم جذاذا إلا كبيرا لهم لعلهم إليه يرجعون﴾.

ورابعها: حاله مع ملك زمانه، حيث قال: ﴿ربي الذي يحي ويميت﴾. إلى آخر الآية.

فهذا كل مباحثة إبراهيم عليه للسلام في معرفة المبدأ.

وأما بحثه في معرفـة المعـاد، فهـو كقـولـه: ﴿يـا رب أرني كيـف تُحيي الموتى﴾؟ إلى آخر الآية.

واعلم: أن موسى عليه السلام كان يقول في الاستدلال على مثل دلائل إبراهيم. وذلك أنه حكى في سورة طه: أن فرعون قال له ولهارون: ﴿فمن ربكما يا موسى﴾؟ فرد بقوله: ﴿ربنا الذي أعطى كل شيء خلقه ثم هدى﴾ وهذا هو الدليل الذي ذكره إبراهيم عليه السلام حيث قال: ﴿الذي خلقني فهو يهدين﴾. ثم حكى الله تعالى عن موسى في سورة الشعراء أنه قال لفرعون: ﴿ربكم ورب آبائكم الأولين﴾: وهذا هو الذي عول عليه إبراهيم عليه السلام في قوله: ﴿ربي الذي يحيي ويميت﴾ فلما لم يكتف فرعون بذلك، وطالبه بدليل آخر، قال موسى: ﴿رب المشرق والمغرب﴾. وهذا هو الذي عوَّل عليه إبراهيم عليه السلام في قوله: ﴿فإن الله يأتي بالشمس من المشرق فَأْتِ بها من المغرب﴾.

وهذا ينبهك على أن التمسك بهذه الدلائل: حرفة هؤلاء الأنبياء - عليهم السلام - ثم إن موسى عليه السلام لما فرغ من تقرير دلائل التوحيد قال: ﴿أو لو جئتك بشيء مبين﴾؟ وهذا يدل على أنه عليه السلام إنما فرَّع بيان النبوة على بيان التوحيد والمعرفة.

وأما سليمان عليه السلام فله مقامان:

أحدهما: في بيان إثبات التوحيد.

والآخر: في إثبات النبوة.

أما المقام الأول في إثبات التوحيد: فهو في قوله تعالى حكاية عنه: ﴿ألا يسجدوا لله الذي يخرج الخبء في السموات والأرض ويعلم ما تخفون وما تعلنون﴾؟ وهذه الآية دالة على وصف الله تعالى بالقدرة والعلم.

أما القدرة: فقوله: ﴿ألا يسجدوا لله الذي يخرج الخبء في السموات والأرض﴾؟ وسمى الخبء بالمصدر وهو يتناول جميع أنواع الأرزاق، وإخراجه من السماء بالغيث، ومن الأرض بالنبات، وتقريره: ما قدمناه.

وأما العلم: فيدل على ثبوته قوله: ﴿ويعلم ما تخفون وما تعلنون﴾.

واعلم: أن المقصود من هذا الكلام: الرد على من يعبد الشمس. وتخليص الدلالة على قانون الجدل على وجهين:

الأول: الإله. ويجب أن يكون قادرا على إخراج الخبء؛ ويكون عالما بالخفيات، والشمس ليست كذلك، فهي لا تكون إلها. أما أنه سبحانه يجب أن يكون قادرا عالما على الوجه المذكور، فكما أنه واجب الوجود لذاته، فلا تختص قدرته وعلمه ببعض المقدورات وبعض المعلومات دون البعض. وأما أن الشمس ليست كذلك، فلأنها جسم متناه، وكل ما كان متناهيا في الذات، كان متناهيا في الصفات. وإذا كان الأمر كذلك امتنع أن تكون الشمس قادرة على إخراج الخبء وعالمة بالخفيات. وإذا لم يعلم من حالها كونها قادرة على جلب المنافع ودفع المضار، فهي ليست إلها. فرجع حاصل هذا الدليل إلى ما ذكره إبراهيم عليه السلام في قوله ﴿يا أبت لم تعبد ما لا يسمع ولا يبصر ولا يغني عنك شيئا﴾؟

الوجه الثاني: أن هذا إشارة إلى دليل إبراهيم في قوله: ﴿ربي الذي يحي ويميت﴾. إلى آخر الآية. وبيانه: أنه سبحانه وتعالى هو الذي يخرج الشمس من المشرق إلى المغرب بعد أفولها، وهذا هو المراد بإخراج الخبء في السموات والأرض. وهو المراد من قول إبراهيم عليه السلام: ﴿لا أحب الآفلين﴾ ومن قوله: ﴿فإن الله يأتي بالشمس من المشرق فَأْتِ بها من المغرب﴾ ومن قول موسى: ﴿رب المشرق والمغرب﴾.

وحاصل الكلام: رجع إلى أن أفول الشمس وطلوعها يدلان على كونها تحت تدبير مدبر قاهر، فكانت العبادة لقاهرها ومدبرها، والمتصرف فيها أحق.

وأما إخراج الخبء من الأرض. فالمراد منه: إخراج النطفة من بين الصلب والترائب، وهو المراد من قول إبراهيم عليه السلام: ﴿ربي الذي يحي

ويميت﴾ ومن قول موسى عليه السلام: ﴿ربكم ورب آبائكم الأولين﴾.

فإن قيل: إن إبراهيم وموسى - عليهما السلام - قدما دلائل النفس على دلائل الأفلاك. فإن إبراهيم عليه السلام قال: ﴿ربي الذي يحيي ويميت﴾. ثم قال: ﴿فإن الله يأتي بالشمس من المشرق﴾. وموسى عليه السلام قال: ﴿ربكم ورب آبائكم الأولين﴾. ثم قال: ﴿رب المشرق والمغرب﴾. ثم عكس سليمان هذا الترتيب؛ فقدم دلائل السموات على دلائل النفس فقال: ﴿الذي يخرج الخبء في السموات والأرض﴾.

فاعلم: أن موسى وإبراهيم عليهما السلام كانت مناظرتهما مع من ادعى إلهية البشر. فإن نمروذ وفرعون كل واحد منهما كان يدعي الإلهية[1]، فلا جرم ابتدأ إبراهيم وموسى بإبطال الإلهية للبشر؛ ثم انتقلا إلى إبطال الإلهية للأفلاك. وأما سليمان عليه السلام فإنه كانت مناظرته مع من يدعي إلهية الشمس، فإن الهدهد قال: ﴿وجدتها وقومها يسجدون للشمس من دون الله﴾. فلا جرم ابتدأ بذكر السموات، ثم ذكر الأرضيات.

ثم إن سليمان عليه السلام لما تمم دلائل التوحيد قال بعدها: ﴿لا إله إلا هو رب العرش العظيم﴾ والمراد: أنه لما بيّن افتقار السموات والأرض وسائر الأفلاك إلى مدبر خالق؛ ذكر بعد ذلك أن كل ما كان جسما فهو مخلوق ومربوب؛ سواء كان عظيما أو صغيرا؛ فقال: لا إله إلا هو رب العرش العظيم﴾ فهذا مقام سليمان عليه السلام في تقرير دلائل التوحيد.

وأما المقام الثاني الذي هو في تقرير دلائل النبوة: فهو قوله تعالى حكاية عنه: ﴿يا أيها الملأ أيكم يأتيني بعرشها قبل أن يأتوني مسلمين؟ قال عفريت من الجن: أنا آتيك به قبل أن تقوم من مقامك، وإني عليه لقوي أمين قال الذي عنده علم من الكتاب: أنا آتيك به قبل أن يرتد

---

(١) إلهية فرعون بمعنى السيادة لقوله: ﴿ويذرك وآلهتك﴾.

إليك طرفك. فلما رآه مستقرا عنده قال: هذا من فضل ربي ليبلوني أأشكر أم أكفر﴾؟

واعلم: أن كثيرا من الناس قالوا: [إن] ذلك الشخص الذي قال: (أنا آتيك به قبل أن يرتد إليك طرفك) هو غير سليمان، وظنوا أن الكاف في قوله: (آتيك) خطاب مع سليمان، وعلى هذا التقدير لا بد أن يكون القائل غير سليمان. إلا أن هذا ضعيف؛ بل الصحيح عندنا: أن الآتي بذلك العرش هو سليمان. وذلك أنه عليه السلام قال: (أيكم يأتيني بعرشها)؟ على سبيل التحدي. فقال العفريت: (أنا آتيك به قبل أن تقوم من مقامك). فقال سليمان عليه السلام للعفريت: (أنا آتيك به قبل أن يرتد إليك طرفك) فهذا الكلام قاله سليمان للعفريت، تقريراً لتحديه الذي ذكره أولاً، وكسرا للعفريت، وإظهاراً للمعجزة.

والذي يدل عليه وجوه:

الأول: إن سليمان عليه السلام ذكر دلائل التوحيد أولا، ثم افتقر بعد ذلك إلى تقرير دلائل النبوة - ومع بلقيس - فإن سليمان قد كلفها الإقرار بالتوحيد والنبوة، فلما ذكر دلائل التوحيد، وجب عليه أن يذكر بعد ذلك دلائل النبوة؛ وهذا معجز دال على النبوة، فوجب جعله معجزا لسليمان عليه السلام، حتى يتم الدليل.

الثاني: إن لفظة (الذي) موضوعة في اللغة للإشارة إلى شخص معين عند محاولة تعريفها بقصة معلومة. والشخص المعروف بأن عنده علم الكتاب هو سليمان عليه السلام. قال الله تعالى: ﴿ففهمناها سليمان﴾ وقال: ﴿وورث سليمان داود﴾ فوجب انصرافه إليه. وأقصى ما في الباب: أن «آصف» أيضاً كان عالما بالكتاب، إلا أن سليمان كان أعرف من آصف، لأن الرسول أعرف بكلام الله من غيره، فكان صرف اللفظ إلى سليمان أولى.

الثالث: إن إحضار العرش في تلك الساعة اللطيفة درجة عالية، فلو حصل لآصف دون سليمان لاقتضى ذلك تفضيل آصف على سليمان؛ وإنه غير جائز.

الرابع: إن سليمان لو افتقر في هذا الغرض إلى آصف لاقتضى قصور سليمان في أعين الخلق.

الخامس: إن سليمان قال: ﴿هذا من فضل ربي ليبلوني أأشكر أم أكفر﴾ وظاهره يقتضي أن يكون ذلك المعجز قد أظهره الله تعالى بدعاء سليمان.

فهذا ما يتعلق باشتغال سليمان عليه السلام بتقرير التوحيد والنبوة، والله أعلم.

واعلم ان عيسى عليه السلام هو أول ما تكلم في شرح أمر التوحيد، فقال: ﴿إني عبدالله﴾ وشهادة حاله دالة على صدق مقالته، وهذه الكلمة الواحدة كانت جامعة لكل المقاصد.

أما دلالتها على التوحيد فإن إنطاق الطفل في زمان الطفولية لا يتأتى إلا من الإله القادر على كل المقدورات. وأما دلالتها على النبوة: ففي دلالتها على براءة أمه من طعن اليهود. فإنه لا يليق بحكمة الحكيم تخصيص ولد الزنا بهذه الرتبة العالية والدرجة الشريفة. ثم إنه عليه السلام بعد هذه الكلمة الوافية بتقرير كل الأغراض، انتقل إلى بيان الشرائع فقال: ﴿آتاني الكتاب وجعلني نبياً﴾.

وأما محمد ﷺ فاعلم: أن اشتغاله بتقرير دلائل التوحيد والنبوة والمعاد أظهر من أن يحتاج فيه إلى مزيد تقرير. وذلك أنه ﷺ كان مبتلى بالرد على جميع فرق الكفار.

فالأول: الدهرية، الذين كانوا يقولون: ﴿وما يهلكنا إلاَّ الدهر﴾ والله تعالى أبطل قولهم، فإنه خالق الدهر والزمان.

والثاني: الذين ينكرون القادر المختار والله تعالى أبطل قولهم بحدوث أنواع النبات، وأصناف الحيوانات، مع اشتراك الكل في تأثير الطبائع والأفلاك.

والثالث: الذين أثبتوا شريكاً مع الله، وذلك الشريك إما أن يكون علوياً أو سفلياً.

أما الشريك العلوي: فمنهم من أثبت أن ذلك الشريك هو الكواكب، والشمس والقمر، والله تعالى أبطلهم بدليل الخليل، وهو قوله: **﴿لا أحب الآفلين﴾** ومنهم من قال: هو النور والظلمة، والله تعالى أبطله بقوله: **﴿الحمد لله الذي خلق السموات والأرض وجعل الظلمات والنور﴾** ومنهم من قال: «يزدان» و«أهرمن» والله تعالى أبطله بقوله: **﴿لو كان فيهما آلهة إلا الله لفسدتا﴾** وبقوله **﴿إذن لا تبتغوا إلى ذي العرش سبيلا﴾** وبقوله: **﴿ولعلا بعضهم على بعض﴾**.

وأما الشريك السفلي: فمنهم من قال بإلهية المسيح، والله تعالى أبطله بقوله: **﴿لن يستنكف المسيح أن يكون عبداً لله﴾** ومنهم من قال: إنه الوثن، والله تعالى أبطله بقوله: **﴿أفمن يخلق كمن لا يخلق]﴾**؟

والرابع: الذين طعنوا في أصل النبوة، وحكى الله تعالى عنهم قوله: **﴿أبعث الله بشراً رسولا﴾**؟ ثم رد الله تعالى عليهم بقوله: **﴿أهم يقسمون رحمة ربك﴾**؟

والخامس: الذين طعنوا في التكليف، تارة بأنه لا فائدة فيه، والله تعالى رد عليهم بقوله: **﴿إن أحسنتم أحسنتم لأنفسكم، وإن أسأتم فلها﴾** وتارة أخرى بأن الحق هو الجبر، وهو ينافي صحة التكليف، والله تعالى أجاب عنه بقوله: **﴿لا يسأل عما يفعل وهم يسألون﴾**.

والسادس: الذين سلموا أصل النبوة، وطعنوا في نبوة محمد ﷺ، والقرآن مملوء من الرد عليهم.

ثم إن طعنهم كان من وجوه: تارة بالطعن في القرآن، من حيث أنه مشتمل على ذكر خسائس الحيوانات، من البعوضة والنملة والذبابة، وأجاب

الله عنه بقوله: ﴿إن الله لا يستحي أن يضرب مثلا مّا، بعوضة فما فوقها﴾ وتارة بأن القرآن سحر وشعر، وأجاب الله عنه بقوله: ﴿فأتوا بسورة من مثله﴾ وتارة بالتماس سائر المعجزات. كقوله تعالى: ﴿وقالوا: لن نؤمن لك حتى تفجر لنا من الأرض ينبوعاً﴾ وأجاب الله عنه بقوله: ﴿هل كنت إلا بشراً رسولا﴾؟ وذلك أن الدليل ما تم لم يبق للاقتراح في الزيادات فائدة، وهو قوله تعالى: ﴿سبحان ربي هل كنت إلا بشرا رسولا﴾؟ وتارة بأن هذا القرآن نزل نجما نجما بطريق التهمة، فأجاب الله بقوله.. ﴿كذلك لنثبت به فؤادك﴾ وتارة بأنه يحتمل أن يكون هذا القرآن من إلقاء الجن والشياطين، كما في سورة الشعراء، وأجاب الله عنه بقوله: ﴿هل أنبئكم على من تنزل الشياطين؟ تنزل على كل أفاك أثيم﴾.

والسابع: الذين أنكروا الحشر والنشر، والقرآن مملوء من الرد عليهم.

فثبت بما ذكرنا أن الاشتغال بدليل التوحيد والنبوة، حرفة جميع الأنبياء - عليهم السلام -.

الحجة العاشرة على نهاية شرف هذا العلم: قوله تعالى: ﴿ادع إلى سبيل ربك بالحكمة والموعظة الحسنة وجادلهم بالتي هي أحسن﴾ وليس المراد منه المجادلة في فروع الشرائع، لأن من أنكر نبوته فلا فائدة من الخوض معه في تفاريع الأحكام، ومن أثبت نبوته فلا يخالفه. فعلمنا بهذا: أن الجدال المأمور به [هو] في تقرير دلائل الأصول. وإذا ثبت هذا في حق الرسول، ثبت في حق أمته، لقوله تعالى: ﴿وأن هذا صراطي مستقيما فاتبعوه ولا تتبعوا السبل فتفرق بكم عن سبيله﴾. ولقوله: ﴿قل إن كنتم تحبون الله فاتبعوني يحببكم الله﴾. وقوله عليه السلام. «عليكم بسنتي وسنة الخلفاء من بعدي».

الحجة الحادية عشرة: قوله تعالى: ﴿ومن الناس من يجادل في الله

بغير علم ولا هدى ولا كتاب منير﴾ وذلك يقتضي أن الجدال مع العلم لا يكون مذموماً. وأيضاً: حكى الله تعالى عن قوم نوح أنهم قالوا: ﴿يا نوح قد جادلتنا فأكثرت جدالنا﴾ ومن المعلوم أن ذلك الجدال كان في تقرير دلائل الأصول. وإذا ثبت بهذه الآيات أن الجدال في تقرير الدلائل مستحسن، ثبت أن المراد من قوله تعالى: ﴿ما ضربوه لك إلا جدلا بل هم قوم خصمون﴾ محمول على ذم الجدال في تقرير الباطل.

الحجة الثانية عشرة. أنه تعالى أمر بالنظر، فقال: ﴿أفلا يتدبرون القرآن﴾ ؟ ﴿أفلا ينظرون إلى الإبل كيف خلقت﴾؟ ﴿سنريهم آياتنا في الآفاق وفي أنفسهم﴾ - ﴿أو لم يروا أنّا نأتي الأرض ننقصها من أطرافها﴾؟ ﴿أو لم ينظروا في ملكوت السموات والأرض﴾؟

الحجة الثالثة عشرة: أنه تعالى ذكر التفكر في معرض المدح فقال: ﴿إن في ذلك لذكرى لأولي الألباب﴾ - ﴿إن في ذلك لعبرة لأولي الأبصار﴾ وأيضا ذم المعرضين فقال: ﴿وكأين من آية في السموات والأرض يمرون عليها وهم عنها معرضون﴾ - ﴿لهم قلوب لا يفقهون بها﴾.

الحجة الرابعة عشرة: أنه تعالى ذم التقليد. فقال حكاية عن الكفار: ﴿إنّا وجدنا آباءنا على أُمّة وإنّا على آثارهم مقتدون﴾. وقال: ﴿بل نتبع ما ألفينا عليه آباءنا﴾ - ﴿بل وجدنا آباءنا كذلك يفعلون﴾. وقال: ﴿إن كاد ليضلنا عن آلهتنا لولا أن صبرنا عليها﴾ وقال في والد إبراهيم عليه السلام: ﴿لئن لم تنته لأرجمنك واهجرني ملياً﴾ وكل ذلك يدل على وجوب النظر وفساد التقليد.

الحجة الخامسة عشرة: أنه تعالى حكى أنهم سألوا محمداً ﷺ عن أمور، كقوله: ﴿ويسألونك عن المحيض﴾ - ﴿ويسألونك عن الأنفال﴾ فذكر في هذه المواضع كذا وكذا، إلا في آية واحدة وهي أنهم سألوه عن مسألة

أصولية، وهي قوله: ﴿ويسألونك عن الجبال. فقل: ينسفها ربي نسفاً﴾ الآية: فههنا حرف التعقيب. يعني: يا محمد، اذكر هذا الجواب في الحال، لأن هذه المسألة أصولية، ولا يجوز تأخير الجواب عنها، لأن ذلك يقدح في الإيمان. أما سائر المسائل فإنها فروعية، فلا يكون تأخير الجواب عنها إلى وقت الحاجة ضارا.

فثبت بجميع هذه الدلائل: وجوب تقديم الأصول على الفروع، فلا جرم قال الله تعالى: ﴿فاعلم أنه لا اله الا الله واستغفر لذنبك وللمؤمنين والمؤمنات﴾ فقدم الأمر بمعرفة التوحيد على الأمر بالاستغفار.

والله أعلم.

الفصل الثاني
في
فوائد كلمة لا إله إلا الله

الفائدة الأولى: اعلم: أن هذا الذكر لما كان من أفضل الاذكار، فالعدو لما جاءته المحنة فزع إليه، والولي لما جاءته المحنة فزع إليه.

أما العدو. فإن فرعون لما قرب من الغرق قال: ﴿**آمنت أنه لا إلـه إلا الذي آمنت به بنو إسرائيل**﴾. والمعنى: أنه لا إله يقدر أن يجعل النار راحة كما في حق إبراهيم، ولا الماء عذبا كما في حقه، إلا الذي آمنت به بنو إسرائيل.

وأما الولي فكما في حق يونس. قال الله تعالى: ﴿**فنادى في الظلمات ألا إله إلا أنت سبحانك إني كنت من الظالمين**﴾ والمعنى.. لا إله إلا أنت، فإنك أنت الذي تقدر على حفظ الإنسان حياً في بطن الحوت، ولا قدرة لغيرك على هذا الحال.

فإن قيل: كل واحد منهما نادى، فلماذا قبل نداء أحدهما ولم يقبل نداء الآخر؟

قلنا: الفرق من وجوه:

الأول: أن يونس ـ عليه السلام ـ كان قد سبقت له المعرفة مع هذه

الكلمة، وسبق المعرفة إعانة على قبولها منه. وأما فرعون فقد تقدم له سبق الكفر، وذلك لأن الذي تقدم له هو النداء إلى نفسه كما قال تعالى: ﴿فحشر فنادى فقال: أنا ربكم الأعلى﴾ وأما يونس عليه السلام فقد كان ينادي الله. قال تعالى: ﴿ولا تكن كصاحب الحوت إذ نادى وهو مكظوم﴾ وأيضاً: قال: ﴿فلولا أنه كان من المسبحين. للبث في بطنه إلى يوم يبعثون﴾ وهذا ينبهك على أن من حفظ الله في الخلوات، يحفظه الله في الفلوات.

الثاني: أن يونس ـ عليه السلام ـ إنما ذكر هذه الكلمة مع الحضور فقال: ﴿لا إله إلا أنت﴾. فكان في الحضور والشهود. وأما فرعون فإنه قالها في الغيبة، فقال: ﴿لا إله إلا الذي آمنت به بنو إسرائيل﴾ فأحال العلم بحقيقة هذه الكلمة على الغير.

الثالث: أن فرعون ذكر هذه الكلمة على سبيل التقليد[1] لبني إسرائيل، فقال: ﴿آمنت أنه لا إله إلاّ الذي آمنت به بنو إسرائيل﴾ وأما يونس عليه السلام فإنه إنما ذكرها على سبيل الاستدلال، مع العجز والانكسار بسبب تلك الكلمات، ثم قال بعده: ﴿سبحانك إني كنت من الظالمين﴾ فحصل له العجز والانكسار بسبب الذلة، فلما كانت هذه مسبوقة بالعجز والانكسار ملحوقة بها، لا جرم صارت مقبولة. لقوله تعالى: ﴿أمن يجيب المضطر إذا دعاه﴾؟.

الرابع: أن فرعون إنما ذكر هذه الكلمة لا للعبودية، بل لطلب الخلاص من الغرق، بدليل قوله: ﴿فلما أدركه الغرق قال آمنت﴾ وأما يونس عليه السلام فهو إنما قالها لما حصل له من الانكسار بسبب التقصير في الطاعة والعبودية، بدليل قوله بعده: ﴿سبحانك إني كنت من الظالمين﴾.

---

(١) ذكر الجلال الدواني أن فرعون موسى مات مؤمناً. ـ راجع الآلوسي في سورة يونس ـ.

والفائدة الثانية لهذه الكلمة : أنه تعالى أمرك بطاعات كثيرة، من الصلاة والصيام والحج، ويستحيل أن يوافقك في شيء منها، ثم يأمرك أن تقول: لا إله إلا الله، ثم إن الله يوافقك فيها، فقال: ﴿شهد الله أنه لا إله إلا هو والملائكة وأولو العلم قائماً بالقسط لا إله الا هو العزيز الحكيم﴾.

والمقصود من التكرير وجهان:

الأول: أن يكون العبد مواظبا على تكريرها طول عمره.

الثاني: كأنه قال: عبدي، جعلت هذه الكلمة أول الآية وآخرها، فاجعلها أنت أيضا أول عمرك وآخره، حتى تفوز بالنجاة والسلامة.

وههنا نكت:

الأولى: أنه تعالى جعلك ثالث نفسه في هذه الآية. وكفاك هذا فخرا.

الثانية: روي أن يوسف عليه السلام أراد أن يتخذ وزيرا، فجاءه جبريل عليه السلام فقال: إن الله يأمرك أن تتخذ فلانا وزيرا لك. فنظر إليه يوسف عليه السلام، وكان في غاية الدناءة، فسأل جبريل عن السبب، فقال: إن له عليك حق الشهادة، إنه هو الذي شهد ﴿إن كان قميصه قد من قُبُلٍ﴾ الآية. والإشارة: أن من شهد لمخلوق وجد وزارته في الدنيا، فمن شهد لله بالتوحيد والجلال، كيف لا يجد معرفته ورحمته في العقبى؟

الثالثة: في الحديث: «إن لله ملائكة يُؤَمنون عند تأمين الإمام، فمن وافق تأمينه تأمين الملائكة غُفر له ما تقدم من ذنبه» والإشارة: أن من وافق تأمينه تأمين الملائكة مرة، صار مغفورا له، فمن وافقت شهادته بوحدانية الله، شهادة الله ألف مرة أولى أن يصير مغفورا له.

الرابعة: أنه سبحانه سماك وقت التخليق مختارا فقال: ﴿وربك يخلق ما

يشاء ويختار﴾ أي مختارا له، لا أنه أثبت الخيار للعبد، وفي موضع الذنب [سماك] جاهلا فقال: ﴿إنه كان ظلوماً جهولاً﴾ وفي موضع الرزق [سماك] دابة فقال: ﴿وما من دابة في الأرض إلا على الله رزقها﴾ وفي وقت الطاعة [سماك] أجيرا: [فقال]: ﴿فيوفيهم أجورهم﴾ وعند الشهادة [سماك] فقال: ﴿والملائكة وأولو العلم﴾ ثم إن العلم أفضل الدرجات. ﴿وعلمك ما لم تكن تعلم. وكان فضل الله عليك عظيما﴾.

والغرض منه: التنبيه على الدرجات. فأنت من حيث أني خلقتك مختاري، فلك درجة موسى حيث قلت: ﴿وأنا اخترتك﴾ وحين أذنبت فأنت جاهل، والجهل عذر من بعض الوجوه، وحين تشتغل بطلب الرزق كالبهيمة، لأنه هو الذي تكفل برزقك، فما هو مقدور لك يصل إليك، وما ليس مقدورًا لك لا يصل إليك، فكأن الطلب عديم الفائدة فكان شبيه أفعال البهائم، وحين تشتغل بالعمل كنت كالأجير. وتلك كلها درجات نازلة، أما حين تشتغل بالشهادة والتوحيد، فأنت من العلماء الخائضين في لجة بحر التوحيد، وبلغت الغاية القصوى في المنقبة والشرف، كما قال تعالى: ﴿يرفع الله الذين آمنوا منكم والذين أوتوا العلم درجات﴾.

الخامسة: قال الله تعالى: ﴿وما تلك بيمينك يا موسى﴾؟ وقعت هذه الإشارة على العصا وعلى اليد، أما العصا فقوله: (تلك) وأما اليد فقوله: (بيمينك) فصارت العصا من قوة هذه الكلمة، تلقف حبال السحرة وعصيهم، وصارت اليد يداً بيضاء ﴿وأدخل يدك في جيبك تخرج بيضاء من غير سوء﴾ وكلمة لا إله إلا الله، وهي صفة وحدانيته وفردانيته في ذاته وجلاله وعزته، ألا تستقل بإفناء آثار العصيان عن قلب العبد وإنارة روحه بنور المعرفة والهداية؟

السادسة: عصا موسى أُخرجت من الجنة، فبطل السحر عندها، وهذه الكلمة إنما ظهرت من شجرة العزّة والربوبية والعظمة، ونرجو أن تبطل الذنوب عندها.

السابعة: حكي عن « الحجّاج » أنه أمر بضرب عنق رجل، فقال: لا تقتلني حتى تأخذ بيدي وتمشي معي. فأجابه إليه، فقال الرجل: بحرمة صحبتي معك في هذه الساعة لا تقتلني. فعفا عنه، فههنا وقعت للمؤمن صحبة مع الله الكريم في هذه الشهادة، فنرجو أن يغفر الله له.

الثامنة: وجد المؤمن بهذه الشهادة أبوة إبراهيم، وهو قوله: ﴿ملة أبيكم إبراهيم﴾ وأمومة أزواج النبي ﷺ ﴿وأزواجه أمهاتهم﴾ وأخوة المؤمنين ﴿إنما المؤمنون إخوة﴾ واستغفار الأنبياء ﴿واستغفر لذنبك وللمؤمنين والمؤمنات﴾ واستغفار الملائكة ﴿ويستغفرون للذين آمنوا﴾ وشفيعاً مثل محمد ﷺ « شفاعتي لأهل الكبائر من أمتي » ومشاركة الله تعالى في الاسم « المؤمن » وذنبه ما أزال عنه هذه التشريفات، أفترى أنه يخرجه عن رحمة أرحم الراحمين، وأكرم الأكرمين؟

التاسعة: يحكى أنه عرض على « نصر بن أحمد » عسكره، وكان يسأل عن أسماء الرجال فيجيبون، فسأل واحداً عن اسمه، فسكت، لأنه كان سميه، ففطن لذلك، فأعطاه خلعة، فإذا كان حال سمي الملك ذلك، فكيف من كان سمي ربه تعالى « المؤمن »؟

الفائدة الثالثة لهذه الكلمة: أن كل طاعة فإنه يصعد بها الملك، أما قول لا إله إلا الله فإنه يصعد بنفسه، ودليله قوله تعالى: ﴿اليه يصعد الكلم الطيب والعمل الصالح يرفعه﴾ أي: عمل الصالح ترفعه الملائكة. هكذا قال بعضهم.

★ ★ ★

الفائدة الرابعة: قال بعضهم: الحكمة في قوله تعالى: ﴿إذا الشمس كورت. وإذا النجوم انكدرت﴾ أن يوم القيامة يتجلى نور كلمة لا إله إلا الله، فينمحق في ذلك النور نور الشمس والقمر، لأن تلك الأنوار مجازية، ونور لا إله إلا الله نور ذاتي واجب الوجود لذاته، والمجاز يبطل في

مقابلة الحقيقة. فلا جرم يبطل كل نور في مقابلة هذا النور، بل يبطل كل وجود في مقابلة هذا الوجود، كما قال: ﴿كل شيء هالك إلا وجهه﴾.

الفائدة الخامسة: أن جميع الطاعات تزول يوم القيامة مثل الصلاة والصيام والحج، فإن التكاليف الظاهرة تزول في عالم الغيب. أما طاعة التهليل والتحميد فلا تزول عنهم، وكيف يمكن زوالها عنهم والقرآن يدل على أنهم مواظبون على الحمد؟ والمواظبة على الحمد تدل على المواظبة على الذكر والتوحيد. وإنما قلنا: إنهم مواظبون على الحمد لقوله تعالى حكاية عن أهل الجنة: ﴿وقالوا الحمد لله الذي صدقنا وعده﴾ ﴿دعواهم فيها سبحانك اللهم وتحيتهم فيها سلام. وآخر دعواهم أن الحمد لله رب العالمين﴾ ﴿لا إله إلا هو له الحمد في الأولى والآخرة﴾.

فثبت: أنهم مواظبون على الحمد، مواظبة على الذكر، فعلمنا: أن جميع العبادات زائلة عن أهل الجنة إلا طاعة الذكر والتوحيد.

الفائدة السادسة: ما روي في الآثار أنه قال: «إذا قال العبد: لا إله إلا الله؛ فإنه تعالى يعطيه من الثواب بعدد كل كافر وكافرة على وجه الأرض»، قال المحققون: السبب في ذلك: أنه لما قال هذه الكلمة؛ فإنه قد رد على كل كافر وكافرة يثبت لله ضداً أو نداً أو شريكاً؛ فلا جرم يستحق الثواب بعددهم.

الفائدة السابعة: قال السدي في قوله تعالى: ﴿حمعسق﴾ الحاء حلمه وحكمه وحجته، والميم ملكه ومجده، والعين عظمته وعلمه وعزه وعدله، والسين سناه وسره والقاف قدرته وقهره. يقول: بحلمي وبحكمي وملكي، وبمجدي وعظمتي، وعزي وعلمي وعدلي، وسنائي وسري، وقدرتي وقهري، لا أعذب في النار أبدا من قال: لا إله إلا الله.

الفائدة الثامنة: قيل: إذا كان آخر الزمان فليس لشيء من الطاعات فضل كفضل لا إله إلا الله؛ لأن صلاتهم وصومهم يشوبها الرياء والسمعة،

وصدقاتهم يشوبها الحرام والشبهة، فلا خلاص في شيء منها، أما كلمة لا إله إلا الله فهي ذكر الله، والمؤمن لا يذكر الله إلاَّ من صميم القلب.

الفائدة التاسعة: الأحاديث الواردة في فضل هذه الكلمة:

فالأول: قوله عليه السلام: «أفضل الذكر لا إله إلا الله، وأفضل الدعاء الحمد لله».

والثاني: عن ابن عمر رضي الله عنهما أنه عليه السلام قال: «ليس على أهل لا إله إلا الله وحشة في الموت، ولا وحشة عند النشر. وكأني أنظر إلى أهل لا إله إلا الله ينفضون شعورهم من التراب، ويقولون: الحمد لله الذي أذهب عنا الحزن».

الثالث: يروى أن «المأمون» لما انصرف من «مرو» يريد «العراق» واجتاز «نيسابور» وكان على مقدمته علي بن موسى الرضا، قام إليه قوم من المشايخ، وقالوا: نسألك بحق قرابتك من رسول الله ﷺ أن تحدثنا حديثا ينفعنا. فروى عن أبيه عن آبائه عن النبي ﷺ عن جبريل عن الله تعالى أنه قال: «لا إله إلا الله حصني، فمن دخل حصني أمن من عذابي».

الرابع: روي عن ابن عباس عن النبي ﷺ أنه قال: «يفتح الله أبواب الجنة وينادي مناد من تحت العرش: أيّها الجنة، وكل ما فيك من النعم، لمن أنت؟ فتنادي الجنة ومَنْ فيها: نحن لأهل لا إله إلا الله، ونشتاق لأهل لا إله إلا الله؛ ونحن محرمون على مَنْ لم يقل: لا إله إلا الله، ومَنْ لم يؤمن بلا إله إلا الله».

الخامس: قال عليه السلام: «أمرت أن أقاتل الناس حتى يقولوا: لا إله إلا الله، فإذا قالوها عصموا مني دماءهم وأموالهم إلا بحقها، وحسابهم على الله». قال بعض العلماء: إنه تعالى جعل العذاب عذابين: أحدهما السيف من يد المسلمين، والثاني عذاب الآخرة، فالسيف في غلاف يرى، والنار في غلاف

لا يرى. فقال لرسوله: من أخرج لسانه من غلاف المريء وهو الفم فقال: لا إله إلا الله، أدخلنا السيف في الغمد الذي يرى. ومن أخرج لسان القلب من الغلاف الذي لا يرى وهو السر، فقال: لا إله إلا الله، أدخلنا سيف عذاب الآخرة في غمد الرحمة؛ حتى يكون واحد بواحد، ولا ظلم ولا جور.

السادس: عن أنس قال: قال عليه السلام: «من قرأ عند منامه ﴿شهد الله أنه لا إله إلا هو والملائكة وأولو العلم قائما بالقسط لا إله إلا هو العزيز الحكيم. إن الدين عند الله الإسلام﴾ خلق الله تعالى سبعين ألف خلق يستغفرون له إلى يوم القيامة، وأنا على ذلكم من الشاهدين.

السابع: عن علي بن أبي طالب رضي الله عنه قال: قال عليه السلام: «إن فاتحة الكتاب، وآية الكرسي، و﴿شهد الله﴾ إلى قوله: ﴿إن الدين عند الله الإسلام﴾ و﴿قل اللهم مالك الملك﴾ إلى قوله ﴿بغير حساب﴾ معلقات. ما بينهن وبين الله حجاب، يقول الله عز وجل: بي حلفت، لا يقرأكن أحد من عبادي إلا جعلت الجنة مثواه على ما كان منه، وأسكنته حظيرة القدس، ولأنظرن إليه بعين الرحمة كل يوم سبعين ألف مرة، ولقضيت له كل يوم سبعين حاجة، أدناها المغفرة، وأحفظه من كل عدو وحاسد»

الثامن: قال أبو سعيد الخدري: قال عليه السلام: ما من عبد يقول أربع مرات: اللهم إني أشهدك وكفى بك شهيدا، وأشهد حملة عرشك وملائكتك، وجميع خلقك، أني أشهد أن لا إله إلا أنت، وحدك لا شريك لك، وأشهد أن محمدا عبدك ورسولك، إلا كتب الله له صكا بالعتق من النار»

التاسع: عن ابن عمر قال: قال ﷺ: «يجاء برجل من أمتي يوم القيامة على رؤوس الخلائق، فينشر عليه تسعة وتسعين سجلا، كل سجل مثل مد البصر، فيقال له: أتنكر من هذا شيئاً؟ أظلمك الحافظون؟ فيقول: لا يارب، فيقال: ألك عذر؟ فيقول: لا يارب، فيقول الله تعالى: إن لك عندنا وديعة، وإنه لا ظلم عليك اليوم. فيخرج له بطاقة فيها: أشهد أن لا إله إلا

الله، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله، فيقول: يا رب، هذه البطاقة مع هذه السجلات؟ فيقول الله: لا ظلم اليوم، فتوضع البطاقة في كفة. فطاشت السجلات، وثقلت البطاقة، فلا يثقل مع اسم الله شيء »

العاشر: عن أنس قال: قال عليه السلام: « ما زلت أشفع إلى ربي فيشفعني، حتى أقول: يا رب شفعني فيمن قال: لا إله إلا الله. فيقول الله تعالى: هذه ليست لك يا محمد، إنما هذه لي. وعزتي ورحمتي وحلمي، لا أدع في النار أحداً قال: لا إله إلا الله ».

واعلم أن أهل العرفان ذكروا في تفسير لا إله إلا الله وجوها:

الأول: قال ابن عباس، لا إله إلا الله: لا نافع ولا ضار، ولا معزّ ولا مذل، ولا معطي ولا مانع إلا الله.

الثاني: لا إله يرجى فضله، ويخاف عدله، ويؤمن جوده، ويؤكل رزقه، ويسأل عفوه، ويترك أمره، ويرتكب نهيه، ولا يحرم فضله إلا الله الذي هو رب العالمين، وغفار المذنبين، وملجأ التائبين المغمومين، وغاية رجاء الراجين، ومنتهى مقصد العارفين.

الثالث: قول العبد: لا إله إلا الله، إشارة إلى المعرفة والتوحيد بلسان الحمد والتسديد، إلى الملك المجيد، فإذا قال: لا إله إلا الله، فالمعنى لا إله له الآلاء والنعماء، والقدرة والبقاء، والعظمة والسناء، والعزة والثناء، والسخط والرضا، إلا الله الذي هو رب العالمين، وخالق الأولين والآخرين، وديان يوم الدين.

الرابع: لا إله للرغبة، ولا إله للرهبة، إلا الله الذي هو كاشف الكربة.

وعن عمران بن حصين قال: قال عليه السلام لأبي حصين: « كم تعبد اليوم من إله »؟ قال: أعبد ستة أو سبعة في الأرض، وواحدا في السماء. قال: « أيهم تعبده برغبتك ورهبتك »؟ قال: الذي في السماء. قال: « فيكفيك إله السماء ».

ثم قال: «يا حصين، لو أسلمت، علمتك كلمتين ينفعانـك» فـأسلم حصين، ثم قال: يا رسول الله، علمني هاتين الكلمتين. فقال: «قل: اللهم ألهمني رشدي، واغفر لي، واعصمني من شر نفسي».

الخامس: قيل في قوله: ﴿شهد الله﴾ يشهد الله تعالى في عوالم القدس، وحظائر الجلال، وسرادقات الصمدية، والملائكة يشهدون بهذه الشهادة في السماوات، وأولو العلم يشهدون بهذه الشهادة في الأرضين.

وقال جعفر الصادق وقد سألوه عن هذه الآية: إن الله شهد لنفسه بالفردانية والصمدية والأحدية والأزلية، ثم خلق الخلق، فشغلهم بعبادة هذه الكلمة. وذلك لأن شهادة الحق لنفسه حق، وشهادتهم له رسم، فكيف يستوي الرسم مع الحق؟ ومن أين للتراب طاقة على تجلي نور رب الأرباب؟

وقال سعيد بن جبير: كان حول الكعبة ثلاثمائة وستون صنماً، فلما نزل قوله تعالى: ﴿شهد الله﴾ خرت الأصنام سجدا حول الكعبة.

الفصل الثالث
في
أسماء كلمة التوحيد

الأول: كلمة التوحيد

وذلك لأنها تدل على نفي الشرك على الإطلاق. وفائدة قولنا على الإطلاق، أنه تعالى لما قال: ﴿وإلهكم إله واحد﴾ أمكن أن يخطر ببال أحد أن يقول: إن إلهنا واحد، فلعل إله غيرنا مغاير لإلهنا. فالله تعالى أزال هذا التوهم ببيان التوحيد المطلق فقال: ﴿لا إله إلا هو﴾ وذلك لأن قولنا لا رجل في الدار، يقتضي نفي الماهية، ومتى انتفت الماهية، انتفى جميع أفرادها، إذ لو حصل فرد من أفراد تلك الماهية، لحصلت تلك الماهية، لأن كل فرد من أفراد الماهية يشتمل على الماهية، وإذا وجدت الماهية، فذلك يناقض نفي الماهية، فثبت أن قولنا: لا رجل في الدار، يفيد النفي العام الشامل. فإذا قيل بعد ذلك: إلا زيدا، أفاد التوحيد العام الكامل.

ثم اعلم أن لهذا ثمرتين:

الأولى: إن جوهر الإنسان خلق في الأصل مشرفا مكرما، قال تعالى: ﴿ولقد كرمنا بني آدم﴾ فإذا كان الأصل فيه كونه مكرما؛ كان كونه مطهرا على وفق الأصل، وكونه منجسا على خلاف الأصل ثم إنا رأينا الانسان متى أشرك صار نجسا، بدليل قوله تعالى: ﴿إنما المشركون نجس﴾

فإذا كان الشرك يقتضي كونه نجسا مع ذلك على خلاف الأصل، فكونه موحدا بأن يقتضي كونه طاهراً أولى، لأنه على وفق الأصل. وإذا ثبت أن الموحد كامل في كونه طاهراً، وجب أن يكون من خواص الله تعالى، لقوله: ﴿الطيبات للطيبين والطيبون للطيبات﴾.

الثانية: أن الشرك سبب لخراب العالم، بدليل قوله تعالى: ﴿تكاد السموات يتفطرن منه وتنشق الأرض وتخر الجبال هدا: أن دعوا للرحمن ولدا﴾ وإذا كان الشرك سببا لخراب العالم، وجب أن يكون التوحيد سبباً لعمارة العالم، ضرورة كون الضدين مختلفين في الحكم، فاذا ثبت أن كلمة التوحيد سبب لعمارة العالم، فأولى أن تكون سبباً لعمارة القلب الذي هو محل الوحدانية ولعمارة اللسان الذي هو محل ذكر الوحدانية، وذلك يناسب عفو الله عن أهل التوحيد.

الاسم الثاني: كلمة الاخلاص

إن هذه الكلمة تسمى كلمة الإخلاص. وكان «معروف الكرخي» يقول: يا نفسي تخلصي. ثم التحقيق فيه: أن كل شيء يتصور أن يشوبه غيره، فإذا صفا عن شوبه، وخلص لله سمي خالصا، وسمي الفعل إخلاصا. ولا شك أن كل من أتى بفعل اختياري، فلا بدّ له في ذلك الفعل من غرض، ومتى كان الغرض في الفعل واحدا، سمي هذا الفعل إخلاصا. فمن تصدق وكان غرضه محض الرياء، فهو غير مخلص، ومن كان غرضه محض التقرب إلى الله، فهو مخلص، ولكن العادة جارية بتخصيص اسم الإخلاص بتجريد قصد التقرب إلى الله تعالى عن جميع الشوائب، كما أن الإلحاد هو الميل، ولكن خصصه العرف بالميل عن الحق.

إذا عرفت هذا فنقول: الباعث على الفعل إما أن يكون روحانياً فقط - وهو الإخلاص - أو شيطانياً فقط - وهو الرياء - أو مركباً منهما، وهو على

ثلاثة أقسام، لأن الطرفين إما أن يكونا على السوية، أو يكون الروحاني أقوى، أو يكون النفساني أقوى.

القسم الأول: وهو أن يكون الباعث روحانياً فقط، فهذا لا يتصور إلا من محب لله، مستغرق الهمه به. بحيث لم يبق لحب الدنيا في قلبه مقر، حتى لا يحب الأكل والشرب. بل تكون رغبته فيه كرغبته في قضاء الحاجة، من حيث إنه ضرورة الجبلة. فلذلك لا يشتهي الطعام لأنه طعام، بل لأنه يقويه على عبادة الله. فمثل هذا الشخص إذا أكل أو شرب أو قضى حاجته، كان خالص العلم في جميع حركاته وسكناته، ولو نام مثلا لتستريح نفسه لتقوى على عبادة الله، كان نومه أيضا عبادة.

وأما القسم الثاني: وهو أن يكون الباعث نفسانياً، فهو لا يتصور إلا من محب للنفس والدنيا، مستغرق الهم بهما، بحيث لم يبق لحب الله في قلبه مقر. وكما أنه في القسم الأول لما غلب حب الله وحب الآخرة على قلبه، اكتسب بحركاته الاختيارية هذه الصفة، فكذلك من غلب على قلبه حب النفس والدنيا، اكتسبت جميع أفعاله تلك الصفة، فلا يسلم له شيء من عبادته، وهذان القسمان لا يخفى حكمهما في الثواب والعقاب.

وأما الأقسام الثلاثة الباقية فتقول: أما الذي فيه الباعثان فالأظهر أنهما يتعارضان ويتناقضان، فيصير ذلك العمل لا له ولا عليه. وأما الذي يكون أحد الطرفين فيه أغلب؛ فينحط منه ما يساوي الطرف الآخر، وتبقى الزيادة موجبة أثرها اللائق بها. وذلك هو المراد بقوله تعالى: ﴿**فمن يعمل مثقال ذرة خيراً يره. ومن يعمل مثقال ذرة شراً يره**﴾ وقوله: ﴿**إن الله لا يظلم مثقال ذرة**﴾.

وتمام التحقيق فيه: أن الأعمال لها تأثيرات في القلب، فإذا خلا المؤثر عن المعارض، خلا الأثر عن المضعف، وإذا كان المؤثر مقرونا بالمعارض، فإن تساويا تساقطا، وإن كان أحدهما أغلب، فلا بد أن يحصل في الزائد بمقدار

الناقص، فيحصل التساوي بينهما، أو يحصل التساقط ويبقى القدر الزائد خالياً عن المعارض، فيؤثر لا محالة أثر ما.

وكما لا يخلو مثقال ذرة من الطعام أو الشراب عن أثر في الجسد، فكذلك لا يخلو مثقال ذرة من الخير والشر عن أثر في التقريب من باب الله تعالى أو التبعيد منه فإذا جاء بما يقربه شبرا مع ما يباعده شبرا، فقد عاد إلى ما كان عليه، لا له ولا عليه. وإذا كان أحد الفعلين مما يقربه شبرين والفعل الثاني مما يباعده شبرا واحدا، اقترب لا محالة شبرا إلى الله.

واحتج من زعم أن المشوب لا ثواب عليه بوجهين:

الحجة الأولى: ما روى أن رجلا سأل النبي ﷺ عمن يصنع المعروف، ثم يحب أن يحمد عليه ويؤجر، فلم يدر ما يقول حتى نزل: ﴿**فمن كان يرجو لقاء ربه فليعمل عملا صالحا ولا يشرك بعبادة ربه أحدا**﴾.

الحجة الثانية: ما روى أبو هريرة رضي الله عنه أنه عليه السلام قال لمن أشرك في عمله أحدا: «خذ أجرك ممن عملت له» وعن النبي ﷺ أن الله يقول: «أنا أغني الأغنياء عن الشرك؛ من عمل عملا أشرك فيه غيري، تركت نصيبي لشريكي.

والجواب عن الحجة الأولى: أنها محمولة على ما إذا أتي بالعمل لغرض الدنيا فقط.

والجواب عن الثانية: أن لفظ الشرك محمول على تساوي الداعين، وقد بينا أنه عند التساوي فيحيط كل واحد منهما الآخر.

إذا عرفت هذه المقدمة فنقول: كلمة لا إله إلا الله، مسماة بكلمة الإخلاص، وذلك أن الأصل في هذه الكلمة عمل القلب، وهو كون الإنسان عارفا بقلبه وحدانية الله تعالى، وهذه المعرفة الحاصلة بالقلب مستحيل أن يأتي بها لغرض آخر سوى طاعة الله وحبه وعبوديته، فهذه المعرفة إن طلبت ظلت

لوجه الله تعالى، لا لغرض آخر البتة، بخلاف سائر الطاعات البدنية، فإنها كما يؤتى بها لتعظيم الله؛ قد يؤتى بها لسائر الأغراض العاجلة من الدنيا، وطلب المدح والثناء. فلهذا السبب سميت هذه الكلمة [كلمة] الإخلاص.

الاسم الثالث لهذه الكلمة: كلمة الإحسان

ويدل على صحة هذه التسمية: القرآن والخبر والمعقول.

أما القرآن فآيات:

إحداها: قوله تعالى: ﴿**هل جزاء الإحسان إلا الإحسان**﴾؟ قال المفسرون: المراد من قوله (هل جزء الإحسان)؟ هل جزاء الإيمان[1]؟ والتحقيق فيه: أن عليك عهد العبودية، وعلى كرمه عهد الربوبية، كما قال تعالى: ﴿**أوفوا بعهدي أوف بعهدكم**﴾ وعهد عبوديتك: أن تكون عبدا له لا لغيره، ثم كمال هذه الدرجة: أن تعرف أن كل ما سوى الله فهو عبد له، كما قال: ﴿**إن كل من في السموات والأرض إلاَّ آتى الرحمن عبدا**﴾ ومن أتى بالفعل على أحسن الوجوه كان محسناً فيه، وقوله: لا إله إلا الله، يدل على اعتراف بأن كل ما سواه فهو عبده ومربوبه. فثبت: أن قول لا إله إلا الله [هو] إحسان من العبد؛ فقوله: ﴿**هل جزاء الإحسان إلا الإحسان**﴾؟ هل جزاء من أتى بقول لا إله إلا الله إلا أن أجعله في حماية لا إله إلا الله؟

والثانية: قوله تعالى: ﴿**للذين أحسنوا: الحسنى وزيادة**﴾ والمراد من قوله: (للذين أحسنوا) هو قول لا إله إلا الله باتفاق أهل التفسير ـ وبدليل ـ أنه لو قال ذلك ومات ولم يتفرغ لعمل آخر[2]، دخل الجنة.

وثالثها: قوله: ﴿**ومن أحسن قولاً ممن دعا الى الله وعمل صالحاً**﴾

---

(١) انظر تفسير الطبري ١٧/٧٣.

(٢) ﴿للذين احسنوا﴾: أي بالايمان والعمل لقوله تعالى: ﴿ومَنْ أحسنُ قولاً مّمَن دعا إلى الله وعمل صالحاً وقال إنني من المسلمين﴾ والحسنى: أي الجزاء الحسن. وزيادة: أي وله جزاء حسناً أكثر مما يستحق، فضلاً من الله وكرماً.

اتفقوا على أن هذه الآية نزلت في فضيلة الأذان وما ذاك إلا لاشتمال الأذان على كلمة لا إله إلا الله.

وأيضاً فإنه تعالى قال في صفة الكافرين: ﴿ومن أظلم ممن افترى على الله كذبا﴾ فكما أنه لا قبيح أقبح من كلمة الكفر [فكذلك] لا حسن أحسن من كلمة التوحيد، ولهذا قال تعالى في أول سورة المؤمنين: ﴿قد أفلح المؤمنون﴾ وقال في آخر السورة: ﴿إنه لا يفلح الكافرون﴾.

ثم إنه لما كان قول الموحد حسناً كان مقيله حسناً كما قال تعالى: ﴿أصحاب الجنة يومئذ خير مستقراً وأحسن مقيلا﴾ ولما كان قول الكافر قبيحاً كان مقيله أيضاً مظلماً. قال تعالى: ﴿والذين كفروا أولياؤهم الطاغوت يخرجونهم من النور إلى الظلمات﴾.

ورابعها: قوله تعالى: ﴿الذين يستمعون القول فيتبعون أحسنه﴾ ولا شك أن أحسن القول: لا إله إلا الله.

وخامسها: قوله تعالى: ﴿إن الله يأمر بالعدل والإحسان﴾ قيل: العدل الإعراض عما سوى الله تعالى، والإحسان: الإقبال على الله تعالى.

وسادسها: قوله تعالى: ﴿إن أحسنتم أحسنتم لأنفسكم﴾ ولا شك أن الإحسان قول: لا إله إلاّ الله.

وأما الخبر: فما روى أبو موسى الأشعري قال: قال رسول الله ﷺ: «للذين أحسنوا الحسنى وزيادة»: للذين قالوا: لا إله الا الله الحسنى: وهي الجنة، والزيادة هي النظر إلى وجهه الكريم».

وأما المعقول: فهو أنه كل ما كان الفعل حسناً، كان فاعله أكثر إحساناً، ولا شك أن أحسن الأذكار، ذكر لا إله إلا الله، وأحسن المعارف معرفة لا إله إلا الله، وإذا كان كذلك كانت هذه المعرفة وهذا الذكر، إحساناً.

مبرءون عن الشرك الجلي، أما الحالة المسماة بالشرك الخفي، وهو الالتفات إلى غير الله، فالبشر لا ينفك عنه في جميع الأوقات، فلذلك السبب تضرع الأنبياء - عليهم السلام - إلى الله تعالى في أن يصرفه عنهم.

الاسم السابع عشر: مقاليد السموات والأرض

قال الله تعالى: ﴿**له مقاليد السموات والأرض**﴾ قال ابن عباس: هو قول لا إله إلا الله.

وأقول: هذا هو الحق، ويدل عليه وجوه:

الأول: إنه تعالى بيّن أنه لو كان في الوجود إلهان، لحصل الفساد في العالم، ولاختلت المصالح، قال الله تعالى: ﴿**لو كان فيهما آلهة إلا الله لفسدتا**﴾ فثبت: أن الشرك سبب لفساد العالم، وأن التوحيد سبب لانتظام العالم، فثبت: أن مقاليد السموات والأرض هو قول: لا إله إلا الله.

الثاني: إنا بيّنا أن الشرك سبب لفساد العالم، بدليل قوله تعالى: ﴿**تكاد السموات يتفطرن منه وتنشق الأرض وتخر الجبال هدا. أن دعوا للرحمن ولدا**﴾ وإذا كان كذلك كان التوحيد سببا لعمران العالم.

الثالث: إن أبواب السموات لا تفتح عند الدعاء إلا بقول لا إله إلا الله، وأبواب الجنان لا تفتح إلا بهذا القول، وأبواب النيران لا تغلق إلا بهذا القول، وباب القلب لا يفتح إلا بهذه الكلمة، وأنواع الوساوس لا تندفع إلا بهذا القول، فكانت هذه الكلمة أشرف مقاليد السموات والأرض، وأعز مفاتيح الأرواح والنفوس والأجسام والعقول.

الاسم الثامن عشر: السديد

قال الله تعالى: ﴿**يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله وقولوا قولا سديدا**﴾ قيل في تفسيره: الفعيل قد يكون بمعنى الفاعل، كالسميع بمعنى السامع، وقد يكون بمعنى المفعول، كالقتيل بمعنى المقتول، والجريح بمعنى المجروح. فإذا

الاسم الخامس: كلمة العدل

قال الله تعالى: ﴿إن الله يأمر بالعدل والإحسان﴾ قال عثمان بن مظعون الجمحي: ما أسلمت يوم أسلمت إلا حياء من رسول الله ﷺ، وذلك أنه كان كثيراً ما يدعوني إلى الإسلام، فاستحييت منه وأسلمت، ولكن الإسلام ما كان مستقراً في قلبي، ثم إنه عليه السلام دعاني يوماً فجلست إليه، فبينما هو يحدثني إذ وقع بصري على شخص ينزل من السماء، فإذا هو جبريل عليه السلام، فقال: يا محمد ﴿إن الله يأمر بالعدل والإحسان﴾ العدل: شهادة ان لا إله إلا الله، والإحسان: القيام بالعبودية. قال عثمان: فوقع الإسلام في قلبي.

وقال ابن عباس: العدل: شهادة أن لا إله إلا الله، والإحسان: الإخلاص فيه. وقال آخرون: العدل مع الناس بالرعاية، والإحسان مع نفسك بالطاعة. قال تعالى: ﴿إن أحسنتم أحسنتم لأنفسكم﴾.

وقال آخرون: العدل مع الأعضاء، والإحسان مع القلب. وقال آخرون: العدل: رؤية الافتقار إلى الحق، والإحسان: مشاهدة الحق إلى كل شيء في الخلق.

وأعلم: أن السبب في تسمية هذه الكلمة بكلمة العدل وجوه:

الأول: أن العدل في كل شيء: تحصيل ما هو سبب اعتداله، وكمال حاله. ومن المعلوم أن كمال القوى الحساسة في إدراك المحسوسات، وكمال القوى الشهوانية في طلب الأشياء النافعة الجسمانية، وكمال القوى الغضبية في دفع الأشياء الجسمانية المنافية، وأما القوى العقلية وكمال حالها، وغاية سعادتها، فبأن ترسم فيها صور الحقائق، وأشباه المعقولات كما هي، حتى تصير القوى العقلية كالمرآة التي تتجلى فيها صور الوجود بتمامها. ولا شك أن أشرف المعقولات وأعلاها: معرفة جلال الله وقدسه وعظمته وعزته، فكان غاية المعقول، واعتدال الأرواح البشرية، والقوى العقلية: كونها مقبلة على هذه

الحالة، مستغرقة فيها. فلهذا السبب سميت كلمة لا إله إلا الله كلمة العدل.

السبب الثاني: أن هذه الكلمة إنما سميت بكلمة العدل، لأن معرفة الله متوسطة بين الإفراط الذي هو التشبيه، وبين التفريط الذي هو التعطيل. فمن بالغ في الإثبات وقع في التشبيه ومن بالغ في النفي وقع في التعطيل والحق هو طريق الاعتدال بين هذين الطرفين المتباينين.

السبب الثالث: من ترك النظر والاستدلال في معرفته الله تعالى، وعول على الطريقة التي ألفها بحثه وخياله، وقع في الضلال، ومن توغل في البحث، وأراد الوصول إلى كنه العظمة، وهوية الجلال؛ تحير وتردد، بل عمي، فإن نور جلال الإلهية مما يعمي أحداق العقول البشرية، فصار هذان الطرفان مذمومين. والطريق المستقيم هو: أن يخوض الإنسان البحر المعتدل في البحث، ويترك التعمق، وإلى هذا أشار عليه السلام بقوله: «تفكروا في الخلق، ولا تتفكروا في الخالق»

فهذه هي الوجوه التي لأجلها سميت كلمة لا إله إلا الله: كلمة العدل.

فإن قيل: كيف أمر الله تعالى بالعدل في بحر التوحيد، وقد قال تعالى: ﴿**ولن تستطيعوا أن تعدلوا بين النساء ولو حرصتم**﴾ فمن يعجز عن العدل في حق النساء [هل] يقدر على العدل في معرفة الأحد الصمد.

فالجواب: أنه تعالى أظهر عجزك في الضعيف، وأقدرك على الشريف، لتعرف أن الكل منه سبحانه وتعالى.

الاسم السادس: الطيب من القول

قال تعالى في سورة الحج: ﴿**وهدوا إلى الطيب من القول**﴾ وأي كلمة توجد أطهر وأطيب من هذه الكلمة وقد قال تعالى: ﴿**إنما المشركون نجس**﴾؟ ثم إن النجاسة الحاصلة بسبب كفر سبعين سنة تزول بسبب ذكر هذه الكلمة مرة واحدة.

وتحقيق القول فيه: أن الطيب هو اللذيذ. واللذة هي: إدراك الملائم وقد بيَّنا أن الملائم للقوى الحساسة: إدراك المحسوسات، والملائم للقوى الشهوانية: جلب النافع الجسماني، وللقوة الغضبية دفع المنافي الجسماني. وأما الملائم للقوة العقلية فهو إدراك جلال الله وقدسه وعظمته وعزته.

إذا عرفت هذا فنقول: إدراك القوة العاقلة أقوى من إدراك القوة الحساسة ـ وسيأتي شرح هذا فيما بعد إن شاء الله تعالى ـ وأما مدركات القوى الحساسة فهي الأعراض القائمة بالأجسام الكائنة الفاسدة، ومدرك القوة العاقلة هو: ذات الله تعالى وعظمته وجلاله. وظاهر أنه كلما كان الإدراك أقوى والمدرك أشرف كانت اللذة الحاصلة بسبب ذلك الإدراك أشرف وأعلى. فعلى هذا نسبة اللذة العقلية إلى اللذة الحسية في الشرف والقوة، كنسبة الإدراك العقلي إلى الإدراك الحسي، وكنسبة ذات الله تعالى وصفاته في الشرف والتعالي إلى الأعراض القائمة بالأجسام. وكما أنه لا نهاية للنسبة الحاصلة بين هذين الإدراكين وبين هذين المدركين، فكذلك لا نهاية للنسبة الحاصلة بين اللذات العقلية الحاصلة بسبب إدراك جلال الله وبين اللذات الحاصلة بسبب الروائح والطعوم وسائر المحسوسات.

وإذا عرفت هذا ظهر أن الطيب المطلق هو: معرفة أن لا إله إلا الله، وذكر لا إله إلا الله، والاستغراق في أنوار جلال لا إله إلا الله، فلهذا السبب قال تعالى: ﴿**وهدوا إلى الطيب من القول**﴾ والمراد منه: كلمة لا إله إلا الله.

والألف واللام في لفظة ﴿الطيب﴾ للاستغراق؛ كأنه تعالى ينبه إلى أنه لا لذيذ ولا طيب إلا هذا ـ وذلك هو الحق ـ لأنَّا بيَّنا أن أطيب المحسوسات بالنسبة إلى طيب هذه الحالة عدم محض، فلذلك بيَّن بحرف الاستغراق أن كل طيب ليس إلا ذلك.

الاسم السابع: الكلمة الطيبة

قال الله تعالى ﴿ألم تر كيف ضرب الله مثلاً كلمة طيبة كشجرة طيبة أصلها ثابت وفرعها في السماء﴾ اختلفوا في أنه تعالى لِمَ سماها كلمة طيبة؟ على وجوه:

الأول: أنها طيبة بمعنى أنها طاهرة عن التشبيه والتعطيل، ولكنها متوسطة بينهما، مباينة لكل واحدة منهما. كما أن اللبن خارج من بين الفرث والدم، وهو مبرأ عنهما، مصفى عن شائبة كل واحد منهما.

الثاني: أنها طيبة بمعنى أن صاحبها يكون طيب الاسم في الدنيا، طيب المسكن في العقبى. أما طيب اسمه فلقوله تعالى: ﴿والطيبات للطيبين﴾ وأراد به المؤمنين والمؤمنات. وأما طيب المسكن فلقوله: ﴿ومساكن طيبة في جنات عدن﴾.

الثالث: أنها طيبة بمعنى أنها مقبولة، يقبلها الله تعالى، وتصعد إليه، كما قال تعالى: ﴿إليه يصعد الكلم الطيب﴾ قالوا: والسبب في أن هذه الكلمة تصعد إلى الله تعالى بذاتها: أنها طيبة. وقال عليه السلام «إن الله طيب لا يقبل إلا الطيب».

وتمام التحقيق فيه: أن العقل والروح عاشقان على التحلي والمعرفة والمكاشفة ـ على ما سبق تقريره بالبرهان ـ والمعرفة مجذوبة إلى المعروف وإذا تصاعد العرفان إلى المعروف ـ والعارف ملازم للعرفان ـ انجذب العارف إلى المعروف، وصعد إليه. فذلك هو المراد من قوله: ﴿إليه يصعد الكلم الطيب﴾.

فإن قيل: قال المفسرون: الشجرة الطيبة هي النخلة. فما السبب في تشبيه كلمة التوحيد بالنخلة؟

فالجواب عنه من وجوه:

الأول: أن شجرة النخلة لا تنبت في جميع البلدان، بل في البعض دون

البعض، فكذلك كلمة التوحيد لا تجري على كل لسان، ومعرفة التوحيد لا تحصل في كل قلب.

الثاني: أن النخلة أطول الأشجار، وكذا كلمة التوحيد أعلى الكلمات.

الثالث: أن الشجرة الطيبة ثابتة في الأرض، وفروعها في السماء، فكذا أصل الكلمة الطيبة ثابت في القلب، وهو المعرفة، وفرعها ثابت في السماء **﴿إليه يصعد الكلم الطيب﴾**.

الرابع: أن النخلة تحمل كل سنة مرتين، فكذلك الإيمان يحمل في الدنيا مرة فيثاب المؤمن لأجل إيمانه بأهلية الشهادة والولاية والأمانة. ومرة أخرى في الآخرة، وهي الجنة الباقية، والنعمة الدائمة.

الخامس: أن النخلة وإن حصل في وسط ثمرتها نواة لا خير فيها ولا منفعة، فإن قيمة تلك الثمرة لا تنقص بسبب تلك النواة، وكذا كلمة التوحيد وإن كان يحصل معها شيء من المعاصي إلا أن قيمتها لا تنقص بسبب ذلك **﴿يا عبادي الذين أسرفوا على أنفسهم لا تقنطوا من رحمة الله إن الله يغفر الذنوب جميعا إنه هو الغفور الرحيم﴾**.

السادس: أن النخلة أسفلها الذي يقرب من الناس كله شوك، والثمرة والمنفعة لا تحصل إلا عن أعلاها، فكذلك الدين، أوله التكاليف الشاقة التي هي كالشوك، وفي أعلاه الثمرة الحلوة اللذيذة، التي هي الجنة والمعرفة.

الاسم الثامن: القول الثابت

قال الله تعالى: **﴿يثبت الله الذين آمنوا بالقول الثابت في الحياة الدنيا وفي الآخرة﴾** وعلة التسمية من وجوه:

الأول: أن المذكور المعلوم ثابت واجب الثبوت لذاته، ممتنع العدم لذاته. والقول والاعتقاد يتبعان المقول والمعتقد، فلما كان المقول والمعتقد واجب الثبوت لذاته، كان القول والاعتقاد كذلك، فلهذا سماه الله والقول الثابت.

الثاني: أن هذا القول ثابت لا يؤثر الذنب فيه، بل هو مؤثر في إزالة الذنب، لأن الموحد وإن عظمت ذنوبه، ترجى له المغفرة، قال الله تعالى: ﴿**إن الله لا يغفر أن يشرك به ويغفر ما دون ذلك لمن يشاء**﴾ والكافر وإن عظم كفره إذا رجع من الكفر إلى التوحيد هدم التوحيد كفره.

الثالث: أن هذه الكلمة ثابتة في الآخرة، لا ترتفع عن العبيد، وذلك لأن أهل الجنة يشتغلون في الجنة بذكر التوحيد. ألا ترى أن الله أخبر عنهم بقوله: ﴿**وقالوا الحمدلله الذي أذهب عنا الحزن**﴾ - ﴿**وقالوا الحمد لله الذي صدقنا وعده**﴾ - ﴿**الحمد لله الذي هدانا لهذا**﴾

الرابع: أنها ثابتة لأن أصلها محكم، وذلك لأن أول من شهد هذه الشهادة هو الله تعالى، بدليل قوله تعالى: ﴿**شهد الله أنه لا إله إلا هو**﴾ فشهادة جميع الشاهدين بتوحيد الله تعالى فرع على شهادة الله، وشهادة الله هي الأصل، فكل شهادة أصلها شهادة الله، فهي ثابتة في الدنيا والآخرة.

الخامس: أن الإنسان بدون هذه الكلمة يعمل فيه الماء والنار، ومع هذه الكلمة لا يعمل فيه الماء والنار.

أما بيان أن الإنسان بدون هذه الكلمة يعمل فيه الماء والنار؛ فإن فرعون أغرق في الماء أولا، ثم انتقل من الماء إلى النار، بدليل قوله تعالى: ﴿**أغرقوا فأدخلوا نارا**﴾ وعجل السامري أحرق بالنار أولا، ثم نقل من النار إلى الماء. بدليل قوله تعالى: ﴿**لنحرقنه ثم لننسفنه في اليم نسفا**﴾

وأما أنه مع هذه الكلمة لا يعمل فيه الماء ولا النار، فإن إبراهيم وموسى عليهما السلام كانا مع حقيقة هذه الكلمة، فلم تعمل النار في إبراهيم ﴿**قلنا يا نار كوني برداً وسلاماً على إبراهيم**﴾ ولم يعمل الماء في موسى ﴿**فإذا خفت عليه فألقيه في أليم ولا تخافي ولا تحزني. إنا رادوه إليك وجاعلوه من المرسلين**﴾

الاسم التاسع: كلمة التقوى

قال الله تعالى: ﴿والزمهم كلمة التقوى﴾ وفي سبب هذه التسمية وجوه:

الأول: إنه لما أتقى صاحب هذه الكلمة أن يصف ربه بما وصفه به المشركون وصفت هذه الكلمة بأنها كلمة التقوى، ورأس التقوى، إتقاء لكلمة الكفر. ثم في هذه الآية إشارة وبشارة.

أما الإشارة: فهي أنه تعالى سمي نفسه أهل التقوى. فقال: ﴿هو أهل التقوى وأهل المغفرة﴾ وسمى الموحدين أهل كلمة التقوى فقال: ﴿والزمهم كلمة التقوى﴾ فكأنه تعالى يقول: أنا أهل أن أكون مذكوراً بهذه الكلمة، وأنت أهل لذكر هذه الكلمة، فما أعظم هذا الشرف.

وأما البشارة: فهي أنه تعالى قال: ﴿وألزمهم كلمة التقوى وكانوا أحق بها وأهلها﴾ فأثبت أن الموحدين أحق الخلق بهذه الكلمة، وهم أهل هذه الكلمة، وأنه كريم لا ينزع الحق عن مستحقه، فهذا يدل على أنه لا ينزع الإيمان من قلب المؤمن.

والثاني في بيان أنه لم سميت هذه الكلمة بكلمة التقوى: هو أن هذه الكلمة واقية لبدنك من السيف، ولما لك من الاستغنام، ولزمتك من الجزية، ولأولادك من السبي، فإن انضاف القلب إلى اللسان صارت واقية لقلبك عن الكفر، وإن انضم التوفيق إليه صارت واقية لجوارحك عن المعاصي، ثم قال: ﴿وألزمهم كلمة التقوى﴾ أي: نحن ألزمناهم بهذه الكلمة التي هي المفتاح لباب الجنة، فنحن أردناهم أولا، وهم ما أرادونا. فلنا المنة عليهم في فتح هذا الباب، وتقريره بقوله تعالى: ﴿يمنون عليك أن أسلموا. قل: لا تمنوا على إسلامكم بل الله يمن عليكم أن هداكم للايمان﴾

الاسم العاشر: الكلمة الباقية

روي عن كثير من المفسرين أنهم قالوا في تفسير قوله تعالى: ﴿وجعلها كلمة باقية في عقبه﴾. أنها: قول لا إله إلا الله ويدل عليه وجوه:

الأول: مقامة هذه الآية، وهي قوله تعالى: ﴿**وإذ قال إبراهيم لأبيه وقومه إنني براء مما تعبدون إلا الذي فطرني فإنه سيهدين**﴾ وكأن معنى قوله: ﴿إنني براء﴾ نفى الإلهية عن الأشياء التي كانوا يعبدونها. ثم قال: ﴿إلا الذي فطرني﴾ فكان فيه إثبات الإلهية للذي فطره، فإذا حصل هذان المعنيان كان مجموعهما هو قول: لا إله إلا الله. ثم قال: ﴿وجعلها كلمة باقية في عقبه﴾ فثبت: أن المراد من الكلمة الباقية: قول لا إله إلا الله.

الثاني: إنه تعالى قال في سورة القصص: ﴿**ولا تدع مع الله إلهاً آخر. لا إله إلا هو كل شيء هالك إلا وجهه**﴾ فبيّن أن كل شيء هالك إلا هو، فإنه واجب الدوام والبقاء. والسرمدية، وقد عرفت أن القول تبع المقول، والاعتقاد تبع المعتقد، فكان صدق لا إله إلا الله وحقيقة لا إله إلا الله واجبي الثبوت والبقاء والدوام، وذلك هو المراد بكونها باقية.

الثالث: إنا بيّنا أن التوحيد لا يزول بسبب المعصية، والمعصية تزول بسبب التوحيد، وأيضاً: التوحيد يبقى مع أهل الجنة، وسائر الطاعات لا تبقى، روى جابر بن عبد الله عن النبي ﷺ عن جبريل أن الله يقول يوم القيامة. ما لي أرى فلان بن فلان في صفوف أهل النار؟ فأقول: يا رب إنا لم نجد له حسنة. فيقول الله تعالى: إني سمعته في الدنيا يقول: يا حنّان يا منّان، فاذهب إليه فسله. فيأتيه فيجده في زاوية من زوايا جهنم يقول: يا حنان يا منان، فيسأله جبريل عن هذه الكلمة، فيقول: وهل حنان منان غير الله؟ قال جبريل: فآخذ بيده من صفوف أهل النار، فأدخله في صفوف أهل الجنة.

الاسم الحادي عشر: كلمة الله العليا

قال الله تعالى: ﴿وجعل كلمة الذين كفروا السفلى وكلمة الله هي العليا﴾ واعلم أن السبب في علو هذه الكلمة وجوه:

الأول: هو أن القلب إذا تجلى فيه نور هذه الكلمة، كان ذلك التجلي نور الربوبية، ونور الربوبية إذا تجلى في القلب، استعقب حصول قوة رهيبة ربانية، ولهذا السبب صار المتحققون بهذه الكلمة يستحقرون الأحوال الدنيوية ويستحقرون عظماء الملوك، ولا يبالون بالقتل، ولا يقيمون لشيء من طيبات الدنيا وزناً، وكل ذلك يدل على استعلاء قوة هذه الكلمة.

وانظر إلى استغراق سحرة فرعون لما تجلى لهم نور هذه الكلمة، كيف لم يلتفتوا إلى قطع الأيدي والأرجل، وأن محمداً ﷺ لما استغرق في هذا النور لم يلتفت إلى الملكوت، كما قال تعالى: ﴿ما زاغ البصر وما طغى﴾

الوجه الثاني في كون هذه الكلمة عالية: استعلاؤها في الدنيا على سائر الأديان، كما قال تعالى: ﴿ليظهروه على الدين كله﴾

الثالث: كونها مستعلية على جميع الذنوب؛ فإنها تزيل جميع الذنوب، وشيء من الذنوب لا يزيل نور هذه الكلمة.

الاسم الثاني عشر: المثل الأعلى

قال قتادة في قوله تعالى: ﴿ولله المثل الأعلى﴾ معناه: قول لا إله إلا الله.. واعلم أن معنى المثل هنا: الصفة كذا قال أهل اللغة، ونظيره قوله تعالى: ﴿مثل الجنة التي وعد المتقون﴾ أي صفتها. فصار المراد من قوله: ﴿ولله المثل الأعلى﴾ عين المراد من قوله: ﴿وكلمة الله هي العليا﴾.

الاسم الثالث عشر: كلمة السواء

قال الله تعالى: ﴿تعالوا إلى كلمة سواء بيننا وبينكم﴾ قال أبو العالية الرياحي: هي كلمة لا إله إلا الله، والدليل عليه: أنه تعالى قال بعده: ﴿ألا نعبد إلا الله ولا نشرك به شيئا﴾ ولا معنى لهذه الآية إلا ما هو المراد من قول لا إله إلا الله. فثبت: أن المراد من كلمة السواء هو كلمة لا إله إلا الله.

ومما يقرر ذلك: أن جميع العقول معترفة بصحة لا إله إلا الله. وجميع الألسنة ناطقة بها، وجميع الرقاب خاضعة لها، قال الله تعالى: ﴿ولئن سألتهم من خلق السموات والأرض وسخر الشمس والقمر؟ ليقولن الله﴾

وأيضا: يحتمل أنها سميت كلمة السواء لأنها تفيد الاستواء في الدين والعقل والروح، وتوجب الاستقامة، وترك الاعوجاج في الأمور.

الاسم الرابع عشر: كلمة النجاة

والذي يدل عليه القرآن والحديث والعقول:

أما القرآن: فمن وجهين:

الأول: قوله تعالى: ﴿إن الله لا يغفر أن يشرك به ويغفر ما دون ذلك لمن يشاء﴾ فهذه الآية صريحة في أن النجاة لا تحصل بدون الإيمان بلا إله إلا الله، وتحصل مع الإيمان بلا إله إلا الله.

والثاني: قوله تعالى: ﴿ويا قوم ما لي أدعوكم إلى النجاة وتدعونني إلى النار﴾ النجاة: قول لا إله إلا الله.

وأما الأخبار: فيدل عليه الأخبار التي ذكرناها في الفصل الثاني، ونزيد ههنا أخباراً أخرى:

أحدها: ما روى جابر بن عبدالله أنه قال: سئل رسول الله ﷺ عن

الموحدين فقال: « من لقي الله لا يشرك به شيئا دخل الجنة، ومن لقي الله يشرك به شيئا دخل النار »

وثانيها: عن أبي سعيد الخدري قال: قال عليه السلام: « لقنوا موتاكم شهادة ألا إله إلا الله».

وثالثها: رأى عمر بن الخطاب ـ رضي الله عنه ـ طلحة بن عبيد الله مقبلا مغموما بعد رسول الله ﷺ فقال: ما لك؟ قال: سمعت عن رسول الله ﷺ حديثا ما منعني أن أسأله إلا القدرة عليه حتى مات، سمعته يقول: « إني لأعلم كلمة لا يقولها عبد عند موته إلا أشرق لها لونه، ونفَّسَ الله بها كربته » فقال: إني لأعلم ما هي، فقال: وما هي؟ قال: الكلمة التي أمر بها عمه عند الموت، وهي: لا إله إلا الله، فقال طلحة: صدقت: هي والله.

ورابعها: روى أبو أمامة قال: بعث رسول الله ﷺ أبا بكر ينادي في الناس: « من شهد أن لا إله إلا الله دخل الجنة ».

وخامسها: قال معاذ بن جبل حين حضرته الوفاة: اكشفوا عني سجف القبة حتى أحدثكم حديثا سمعته من رسول الله ﷺ، لم يمنعني أن أحدثكموه إلا أن تتكلوا، أو تتركوا العمل، وتردوا إلى النار، سمعته يقول: « من قال: لا إله إلا الله مخلصا من قلبه دخل الجنة، ولم تمسه النار »

وسادسها: عن عبد الله بن أبي قتادة عن أبيه قال: قال رسول الله ﷺ: « من قال: أشهد إن لا إله إلا الله، وأشهد أن محمدا رسول الله، يجري بها لسانه، ويطمئن بها قلبه، حرمت عليه النار »

وسابعها: روى أبو هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ لأبي الدرداء: « ناد في الناس: من شهد أن لا إله إلا الله وجبت له الجنة. قال أبو الدرداء: وإن زنا وإن سرق؟ قال: وإن زنا وإن سرق، حتى قالها ثلاث مرات، فقال في الثالثة: وإن زنا وإن سرق على رغم أنف أبي الدرداء »

وثامنها: روى معاذ بن جبل عن رسول الله ﷺ أنه قال: «من كان آخر كلامه لا إله إلا الله: وفاضت نفسه بعده، دخل الجنة»

الاسم الخامس عشر: العهد

قال ابن عباس - رضي الله عنه - في قوله تعالى: ﴿لا يملكون الشفاعة إلا من اتخذ عند الرحمن عهداً﴾ العهد هو قول لا إله إلا الله، وأقول: الذي يدل على صحة هذا القول وجوه:

الأول: أن قوله: ﴿إلا من اتخذ عند الرحمن عهدا﴾ نكرة في طرف الثبوت، وذلك لا يفيد إلا عهدا واحدا، فهذه الآية تدل على أن تلك الشفاعة تحصل بسبب عهد واحد، ثم أجمعنا على أن ما سوى الإيمان فإن الواحد منه، بل مجموعه لا يفيد تلك الشفاعة ألبتة، فوجب أن يكون العهد الواحد الذي يفيد تلك الشفاعة هو الإيمان، وهو قول: لا إله إلا الله.

والثاني: أن جماعة من المفسرين قالوا في تفسير قوله تعالى: ﴿وأوفوا بعهدي أوف بعهدكم﴾ هو عهد الإيمان، بدليل: أن لفظ العهد مجمل، فلما أعقبه بقوله: ﴿وآمنوا بما أنزلت مصدقا لما معكم﴾ علمنا: أن المراد من ذلك العهد هو الإيمان، وهو قول لا إله إلا الله، محمد رسول الله.

والثالث: أن أول ما وقع من العهد قوله تعالى: ﴿ألست بربكم؟ قالوا: بلى﴾ وذلك في الحقيقة هو قول لا إله إلا الله. فكان لفظ العهد محمولا عليه.

والرابع: أنه تعالى قال: ﴿إن الله اشترى من المؤمنين أنفسهم وأموالهم بأن لهم الجنة يقاتلون في سبيل الله فيَقْتلون ويُقْتلون وعداً عليه حقا في التوراة والإنجيل والقرآن. ومَنْ أوفى بعهده من الله؟ فاستبشروا ببيعكم﴾

فكان العهد من جانبك عهد الإقرار بالعبودية، ومن جانب الحق سبحانه وتعالى عهد الكرم والربوبية.

فثبت بهذه الوجوه: أن المراد من قوله: ﴿إلا من اتخذ عند الله عهدا﴾ هو قول لا إله إلا الله.

الخامس: قوله تعالى: ﴿قل أتخذتم عند الله عهدا﴾ أي قلتم لا إله إلا الله.

الاسم السادس عشر: كلمة الاستقامة

قال الله تعالى: ﴿إن الذين قالوا ربنا الله ثم استقاموا﴾ قال ابن مسعود رضي الله عنه: المراد من قوله تعالى: ﴿استقاموا﴾ هو قول لا إله إلا الله. وذلك لأن قولهم: ﴿ربنا الله﴾ إقرار بوجود الرب، ثم إن من المقرين بذلك من أثبت له ندا أو شريكا، فالذين نفوا الشركاء والأضداد هم الذين استقاموا على النهج القويم، والصراط المستقيم.

واعلم: أن السلامة في القيامة، بقدر الاستقامة في نفي الشركاء:

فمن الناس مَنْ أنكر الوحدانية ـ وهو الشرك الظاهر ـ والاستقامة في الدين لا تحصل إلا بنفي الشركاء، كما قال تعالى: ﴿فلا تجعلوا لله أنداداً وأنتم تعلمون﴾.

ومنهم من أقر بالوحدانية في الظاهر، إلا أنه يقول قولا يهدم ذلك التوحيد، مثل أن يضيف السعادة والنحوسة إلى الكواكب، ويضيف الصحة والمرض إلى الدواء والغذاء، ويضيف الفعل إلى العبد على سبيل الاستقلال فكل ذلك يبطل الاستقامة في معرفة الحق ـ سبحانه وتعالى ـ

ومنهم من ترك كل ذلك، ولكنه قد يطيع النفس والشهوة في بعض الأفعال، وإليه الإشارة بقوله: ﴿أفرأيت من اتخذ إلهه هواه﴾؟ وهذا النوع من الشرك هو المسمى بالشرك الخفي، وهو المراد من قوله تعالى حكاية عن ابراهيم وإسماعيل عليهما السلام: ﴿واجعلنا مسلمين لك﴾ وقول يوسف عليه السلام: ﴿توفني مسلما﴾ فإن الأنبياء ـ عليهم السلام ـ

مبرءون عن الشرك الجلي، أما الحالة المسماة بالشرك الخفي، وهو الالتفات إلى غير الله، فالبشر لا ينفك عنه في جميع الأوقات، فلذلك السبب تضرع الأنبياء - عليهم السلام - إلى الله تعالى في أن يصرفه عنهم.

الاسم السابع عشر: مقاليد السموات والأرض

قال الله تعالى: ﴿له مقاليد السموات والأرض﴾ قال ابن عباس: هو قول لا إله إلا الله.

وأقول: هذا هو الحق، ويدل عليه وجوه:

الأول: إنه تعالى بيَّن أنه لو كان في الوجود إلهان، لحصل الفساد في العالم، ولاختلت المصالح، قال الله تعالى: ﴿لو كان فيهما آلهة إلا الله لفسدتا﴾ فثبت: أن الشرك سبب لفساد العالم، وأن التوحيد سبب لانتظام العالم، فثبت: أن مقاليد السموات والأرض هو قول: لا إله إلا الله.

الثاني: إنا بيَّنا أن الشرك سبب لفساد العالم، بدليل قوله تعالى: ﴿تكاد السموات يتفطرن منه وتنشق الأرض وتخر الجبال هدا. أن دعوا للرحمن ولدا﴾ وإذا كان كذلك كان التوحيد سببا لعمران العالم.

الثالث: إن أبواب السموات لا تفتح عند الدعاء إلا بقول لا إله إلا الله، وأبواب الجنان لا تفتح إلا بهذا القول، وأبواب النيران لا تغلق إلا بهذا القول، وباب القلب لا يفتح إلا بهذه الكلمة، وأنواع الوساوس لا تندفع إلا بهذا القول، فكانت هذه الكلمة أشرف مقاليد السموات والأرض، وأعز مفاتيح الأرواح والنفوس والأجسام والعقول.

الاسم الثامن عشر: السديد

قال الله تعالى: ﴿يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله وقولوا قولا سديدا﴾ قيل في تفسيره: الفعيل قد يكون بمعنى الفاعل، كالسميع بمعنى السامع، وقد يكون بمعنى المفعول، كالقتيل بمعنى المقتول، والجريح بمعنى المجروح. فإذا

جعلته بمعنى الفاعل كان معناه أنه يسد على صاحبه أبواب جهنم. وإذا حملته على معنى المفعول كان معناه أنه يسد عن أن يضيره شيء من الذنوب.

وأيضاً: فإن «ذا القرنين» بنى السد دفعا لضرر «يأجوج» و«مأجوج» والله تعالى جعل الإيمان سدا لضرر الشياطين من الجن والإنس.

الاسم التاسع عشر: البر

قال الله تعالى: ﴿**ليس البر أن تولوا وجوهكم قبل المشرق والمغرب ولكن البر من آمن بالله واليوم الآخر**﴾ والإشارة في الآية [هو] أن من كان مشتغلا بجميع الجوانب والجهات، لم يكن صاحب البر، إنما صاحب البر هو الذي يتوجه إلى صاحب الكعبة ﴿**إني وجهت وجهي للذي فطر السموات والأرض حنيفا**﴾ فقوله: ﴿**ليس البر أن تولوا وجوهكم قبل المشرق والمغرب**﴾ إشارة إلى الكثرة والقول بالشركاء، وقوله: ﴿**ولكن البر من آمن بالله واليوم الآخر**﴾ إشارة إلى التوحيد، فصار معناه هو المفهوم من قول لا إله إلا الله.

الاسم العشرون: الدين

قال الله تعالى ﴿**ألا لله الدين الخالص**﴾ واعلم: أن الدين هو الانقياد والخضوع. قال عليه السلام في دعواته: «يا من دانت له الرقاب» أي خضعت. فقوله: ﴿**ألا لله الدين الخالص**﴾ أي له الخضوع والخشوع لا لغيره. وإنما يكون كذلك إذا كان واحدا في إلهيته، إذ لو وجد إلهان لكان الخضوع لأحدهما إذا حصل، كان أيضا حاصلا للثاني، ولا يمكن حصر ثبوت الخضوع إلا لله فقط، والحصر دل على أنه لا إله سواه، ولا معبود إلا إياه.

الاسم الحادي والعشرون: الصراط

قال تعالى: ﴿**الصراط المستقيم**﴾ وقال حكاية عن رسوله: ﴿**وأن هذا صراطي مستقيما فاتبعوه**﴾ وقال: ﴿**وإنك لتهدي إلى صراط مستقيم. صراط الله**

الذي له ما في السموات وما في الأرض﴾.

واعلم: أن هذا الصراط المستقيم هو قول لا إله إلا الله. وذلك باعتبار أن حدوث كل محدث، وإمكان كل ممكن؛ يحوجه إلى المؤثر الذي يوجده وينقله من العدم إلى الوجود. وإذا كان الموجد والمدبر واحدا، فمتى نسبت حدوث المحدثات، ووجود الممكنات إلى قدرته، كان ذلك صراطا مستقيما، وطريقا قويما. ومتى نسبت حدوث محدث، ووجود ممكن إلى غير قدرته، كان ذلك طريقاً معوجا، وسبيلا منحرفا.

فثبت: أن الصراط المستقيم لا يحصل إلا بإسناد كل الحوادث والممكنات إلى تخليق الله وتكوينه، وإسناد الكل إليه، وهو التوحيد. فثبت: أن الصراط المستقيم هو قولنا لا إله إلا الله.

الاسم الثاني والعشرون: كلمة الحق

لقوله تعالى: ﴿ولا يملك الذين يدعون من دونه الشفاعة إلا من شهد بالحق﴾ يعني: قول لا إله إلا الله.

الاسم الثالث والعشرون: العروة الوثقى

قال الله تعالى: ﴿فمن يكفر بالطاغوت ويؤمن بالله فقد استمسك بالعروة الوثقى﴾ يعني: بكلمة لا إله إلا الله.

الاسم الرابع والعشرون: كلمة الصدق

لقوله تعالى: ﴿والذي جاء بالصدق وصدق به﴾ أي قول لا إله إلا الله.

فهذا جملة الكلام في لا إله إلا الله.

اللهم بحق أسمائك الطاهرة المقدسة، أن تحفظ بحفظك معرفة هذه الكلمة في قلوبنا، وذكرها على ألسنتنا يا أرحم الراحمين.

الفصل الرابع

في

الأشياء التي شبه الله تعالى بها كلمة التوحيد

الأول: أن الله تعالى شبه الإيمان بالنار. فقال: ﴿**مثلهم كمثل الذي استوقد نارا**﴾ وقال في آية أخرى: ﴿**ومما يوقدون عليه في النار**﴾ وفيه إشارتان:

الأولى: كما أن النار إذا عرضت عليها الذهب المغشوش أحرقت كل ما فيه من الغش، وبقي جوهر الذهب سليما عن الاحتراق، فكذلك يوم القيامة، إذا عرض المذنب على النار أحرقت ذنوبه ومعاصيه، وبقي إيمانه سليما من الإحراق.

الثانية: أن النار تحرق كل شيء، وكذا الإيمان إذا قوي نوره أحرق ما سوى محبة الله تعالى عن القلب ﴿**قل الله ثم ذرهم في خوضهم يلعبون**﴾.

النوع الثاني من الأمور التي شبه الله بها الإيمان: النور. قال الله تعالى: ﴿**مثل نوره**﴾ والسبب في أنه تعالى أضاف المعرفة إلى نفسه وجوه:

الأول: أنه تعالى إنما أضاف المعرفة إلى نفسه قطعا للأطماع عنها، وذلك لأنها جوهرة نفيسة، وقيمتها رفيعة، وصاحبها غافل، والشيطان محتال مكار، وأجل مقصوده: أن يسلب المعرفة من العارف، ويحول بينه وبينها، والله تعالى

برحمته جعل المعرفة في حمايته، حتى ينقطع طمع إبليس عنها.

وتحقيقه: أنه لما قال: ﴿**إن عبادي ليس لك عليهم سلطان**﴾ وأضاف الغباء إلى نفسه، انقطع طمع إبليس عنهم، فقال: ﴿**فبعزتك لأغوينهم أجمعين. إلا عبادك منهم المخلصين**﴾ وهنا لما أضاف الإيمان إلى نفسه بقوله: ﴿**مثل نوره**﴾ لا جرم كان إبليس منقطعا عنه.

الثاني: إن كل ما للعبد فهو للحق، لأنه حصل بتخليقه وإيجاده. فاذا بلغ العبد درجة يشهد فيها هذه الحالة، فقد كملت حاله، فعند ذلك قيل له: كل ما له فهو لنا وكل ما لنا فهو له. والمعرفة التي له فهي لنا، فلا جرم أضافها إلى نفسه فقال: ﴿**مثل نوره**﴾.

الثالث: إن تخصيص الشيء بإضافته إلى الله تعالى: سبب لتشريفه. كما في قوله: ﴿**وطهر بيتي**﴾ وقوله: ﴿**هذه ناقة الله**﴾ وقوله: ﴿**وأنه لما قام عبد الله**﴾ فكذا هنا، إضافة المعرفة إلى نفسه تدل على أنها أشرف الخلع والتشريفات.

ثم ههنا سؤالات:

السؤال الأول: ما الحكمة في أنه شبه نور المعرفة بنور السراج حيث قال: ﴿**مثل نوره كمشكاة فيها مصباح**﴾ ؟

والجواب من وجوه:

الأول: أن البيت إذا كان فيه سراج لم يتجاسر اللص على دخوله، مخافة أن يفتضح، وكذا القلب، إذا كان فيه سراج المعرفة لم يتجاسر الشيطان على دخوله مخافة أن يفتضح.

الثاني: أن البيت إذا كان فيه سراج اهتدى صاحبه إلى طلب الأمتعة، فكذلك القلب إذا كان فيه سراج المعرفة، استدل صاحبه إلى المشروع في الطاعات.

الثالث: إذا كان في البيت سراج انتفع بضيائه كل أحد من غير أن ينقص من استضاءة صاحبه بنوره وكذا كل قلب كان فيه سراج المعرفة انتفع بنوره غير صاحبه، من غير أن ينقص من نور صاحبه شيء.

الرابع: أن السراج إذا كان في البيت، وكان موضوعا في كوة مسدودة بزجاجة، أضاء داخل البيت وخارجه، وكذلك سراج المعرفة يضيء القلب وخارج القلب، حتى يظهر نوره على الأذنين والعينين واللسان. فيظهر فنون الطاعات في هذه الأعضاء، وإليه الإشارة بقوله عليه السلام: «اللهم اجعل في قلبي نورا، وفي سمعي نورا، وفي بصري نورا، وفي عظمي نورا، وفي مخي نورا»

الخامس: أن البيت إذا كان فيه سراج كان صاحبه مستأنساً مسروراً، فإذا طفىء السراج صار مستوحشا، فكذلك القلب، ما دام فيه سراج المعرفة: كان صاحبه مستأنسا مسروراً، فإذا فارقه والعياذ بالله صار حزينا مغموما، قال الله تعالى: ﴿**فمن يرد الله أن يهديه يشرح صدره للإسلام ومن يرد أن يضله يجعل صدره ضيقا حرجا كأنما يصعد في السماء**﴾.

السادس: أن جرم السراج صغير، وضوءه منتشر عن كل جانب، فكذلك ضوء المعرفة ينتشر من القلب إلى جميع الجوانب، كما قال الله تعالى: ﴿**ولله المشرق والمغرب فأينما تولوا فثم وجه الله**﴾ وخصوصا من الجانب العلوي، قال الله تعالى: ﴿**إليه يصعد الكلم الطيب**﴾.

السؤال الثاني: ما الفرق بين سراج الدنيا الذي هو الشمس وبين سراج المعرفة؟

والجواب: الفرق من وجوه:

الأول: أن الشمس تحجبها غمامة، والمعرفة لا تحجبها سبع سموات.

الثاني: أن الشمس تغيب بالليل، والمعرفة لا تغيب لا ليلا ولا نهارا، بل

هي في الليل آكد، قال الله تعالى: ﴿إن ناشئة الليل هي أشد وطأ وأقوم قيلا﴾ وقال تعالى: ﴿سبحان الذي أسرى بعبده ليلا﴾ وقال: ﴿ليلة القدر خير من ألف شهر﴾.

الثالث: أن الشمس تفنى. قال الله تعالى: ﴿إذا الشمس كورت﴾ وأما المعرفة فلا تفنى. قال الله تعالى: ﴿كل شيء هالك إلا وجهه﴾ أي إلا ما حصل بمعناه.

الرابع: الشمس تنكسف، والمعرفة لا تنكسف.

الخامس: الشمس تسود الأشياء، والمعرفة تبيضها.

السادس: الشمس تحرق، والمعرفة تنجي من الحرق.

السابع: الشمس تارة تضر وتارة تنفع، والمعرفة تنفع ولا تضر البتة.

الثامن: الشمس منفعتها في الدنيا، والمعرفة ونفعتها في الدنيا والآخرة.

التاسع: الشمس في السماء زينة لأهل الأرض، والمعرفة زينة لأهل السماء.

العاشر: الشمس في الفوق، وهي تضيء ما تحتها، والمعرفة في قلب المؤمن، وهو في التحت، وهي تضيء ما فوقها.

الحادي عشر: بالشمس ينكشف وجود الخلق، وبالمعرفة ينكشف وجود الخالق. والدليل عليه: قول أمير المؤمنين علي لما قيل له: هل رأيت ربك؟ فقال: لا أعبد رباً لم أره.

الثاني عشر: الشمس تقع على العدو، والوالي والمعرفة ليست إلا للوالي.

الثالث عشر: ولاية الشمس في الدنيا دون الآخرة، أما المعرفة فإنها في الدنيا ذات بداية، وفي الآخرة ذات ولاية.

وأيضاً: فإن الكواكب مصباح الخلق، والمعرفة مصباح الحق.

وأيضاً: فإن الكواكب تطلع من خزانة الفلك، والمعرفة تطلع من خزانة الملك. وأيضاً: فإن الكواكب علامة، والمعرفة كرامة. وأيضاً: فإن الكواكب موضع نظر المخلوقين، والمعرفة موضع نظر رب العالمين. قال عليه السلام: «إن الله لا ينظر إلى صوركم ولا أموالكم، ولكن ينظر إلى قلوبكم وأعمالكم».

السؤال الثالث: ما الفرق بين السراج والمعرفة؟

الجواب من وجوه:

الأول: أن سراج الدنيا مشوب نوره بالظلمة ـ وهي الدخان الذي يعلوه ـ وسراج المعرفة نوره صاف، لا ظلمة معه.

الثاني: أن سراج الدنيا يحرق نفسه لينتفع به غيره، وسراج المعرفة يحرق الذنب، ويروح السر، وينور الصدر.

الثالث: أن سراج الدنيا يضمحل من نور الشمس، وأما سراج المعرفة والتوحيد فإنه يضمحل نور الشمس في نوره.

الرابع: أن سراج الدنيا لا وفاء له، يحرق من أوقده، ومن أمده بالفتيلة، كما يحرق من لم يوقده ولم يمده بالفتيلة، وسراج المعرفة ذو وفاء، لا يحرق صاحبه ألبتة، بل ينجيه من الحرق، فشتان ما بين السراجين.

السؤال الرابع: ما الحكمة في تشبيه المعرفة بالمصباح؟

الجواب من وجوه:

الأول: أن المصباح تضره الرياح، والمعرفة يضرها الوسواس والشبهات.

الثاني: أن المصباح لا يبقى بغير الدهن، والمعرفة لا تبقى بغير التوفيق.

الثالث: لا بد للمصباح من حافظ يتعهده، ولا بد لمصباح المعرفة من متعهد وهو فضل الله ورحمته.

السؤال الخامس: ما الحكمة في تشبيه القلب بالزجاجة؟

الجواب من وجوه:

الأول: أن الذهب والفضة وإن كانا نفيسين رفيعين إلا أنهما كثيفان يوقعان الحجاب، والزجاجة وإن كانت قليلة القيمة إلا أنها لطيفة صافية لا توقع الحجاب، فإنه يرى ظاهرها من باطنها وبالضد، والله تعالى ذكر هذا المثل لرفع الحجاب لا لوضعه.

الثاني: أنه ليس لآنية الزجاجة خطر، إنما الخطر لما في الآنية، فكذا ليس لقلبك خطر، إنما الخطر للإيمان.

الثالث: إذا انكسرت الزجاجة لا تتصلح إلا بإدخال النار والإذابة، وكذا القلب إذا فسد لم يصلح إلا بإدخال النار والإذابة ﴿وإن منكم إلا واردها كان على ربك حتما مقضيا. ثم ننجي الذين اتقوا﴾.

الرابع: ان صاحب الذهب والفضة لا يخاف كسرها، لعلمه أن قيمتها لا تبطل بسبب الانكسار، وأما صاحب الزجاجة فإنه على حذر ووجل، لعلمه بأنها إذا انكسرت بطلت قيمتها، فكذلك المؤمن ينبغي أن يكون على حذر ووجل كصاحب الزجاجة، ولا يكون على أمن كصاحب الذهب والفضة.

الخامس: شبهه بالزجاجة لأن النور من الزجاجة أحسن وأتم ضياء منه في الذهب والفضة. والزجاجة لقلة قيمتها، واستعدادها للانكسار والبطلان صار النور فيها أحسن، وهو إشارة إلى قوله: «أنا عند المنكسرة قلوبهم».

السؤال السادس: ما الحكمة في تشبيه الزجاجة بالكوكب الدري؟

الجواب من وجوه:

الأول: أن الكوكب الدري فيه لأهل الأرض هداية. كما قال تعالى: ﴿وعلامات وبالنجم هو يهتدون﴾ ولأهل السماء زينة، قال تعالى: ﴿إنا زينا

السماء الدنيا بزينة الكواكب﴾ وكذلك قلب المؤمن، سبب لهداية صاحبه إلى الخيرات، وأيضا نزهة لأهل السماء، فإنه روى أن معرفة العارف تضيء لأهل السماء كما يضيء الكوكب الدري لأهل الأرض.

الثاني: الكوكب لا قدرة للشياطين عليه، بل الكوكب يحرق الشياطين، قال الله تعالى: ﴿**وجعلناها رجوما للشياطين**﴾ فكذلك قلب المؤمن لا سبيل للشياطين عليه، بل نور قلبه وإيمانه يحرق الشياطين. ولذلك قال تعالى: ﴿**إن عبادي ليس لك عليهم سلطان**﴾ وقال: ﴿**الذي يوسوس في صدور الناس**﴾ ولم يقل: في قلوب الناس. وقال: ﴿**إن الذين اتقوا إذا مسهم طائف من الشيطان تذكروا فاذا هم مبصرون**﴾ وذلك التذاكر هو ظهور نور الإيمان. وقوله: ﴿**فإذا هم مبصرون**﴾ إشارة إلى احتراق وساوس الشياطين.

السؤال السابع: ما الحكمة في أن شبه القلب بالكوكب لا بالشمس والقمر؟

الجواب من وجوه:

الأول: أن الكوكب مستتر بالنهار ويظهر بالليل، والعارف مستور بالنهار، فإذا أظلم الليل ظهر بالخدمة والتضرع.

الثاني: أن الكوكب زينة السماء والقلب زينة العارف.

الثالث: أن الكواكب مصابيح السماء ﴿**ولقد زينا السماء الدنيا بمصابيح**﴾ والقلب مصباح العارف، قال تعالى ﴿**كمشكاة فيها مصباح**﴾.

السؤال الثامن: هل في تشبيه الإيمان بالسراج بشارة لأهل الإيمان؟

الجواب من وجوه:

الأول: أن الشمس سراج استوقده الله تعالى للفناء، ثم لا يقدر أحد على

إطفائه، والمعرفة سراج استوقده الله تعالى للبقاء، فكيف يقدر إبليس على إطفائه؟

الثاني: استوقد الله تعالى سراج الشمس في السماء. وهي تزيل الظلمة عن بيتك، فإذا استوقد شمس المعرفة في قلبك، كيف لا تزول ظلمة المعصية عنك مع شدة القرب؟

الثالث: من استوقد سراجا فعليه تعهده، والله هو الموقد لسراج المعرفة، قال الله تعالى: ﴿**كتب في قلوبهم الإيمان**﴾ فلا جرم. أوجب على رحمته إمداده وتعهده، وعواطف تعهده عاطفة حافظة، كما قال تعالى: ﴿**إنا نحن نزلنا الذكر وإنا له لحافظون**﴾.

الرابع: اللص إذا رأى السراج في البيت مستوقدا، لا يقصد ذلك البيت بالسرقة، والله تعالى أوقد سراج المعرفة في قلبك، فكيف يقدر لص الشيطان من القرب منك؟

الخامس: المجوس أوقدوا نارا ولا يريدون إطفاءها، والملك القدوس أوقد نار المعرفة والمحبة في قلبك، فكيف يرضى بإطفائها وإبطالها؟

السادس: من أراد أن يستوقد سراجا، احتاج إلى سبعة أشياء: إلى زناد، وحجر، وحراق، وكبريت، ومسرجة، وفتيلة، ودهن. والعبد إذا طلب أن يوقد سراج المعرفة فلا بد أولا من زناد الجهد ﴿**والذين جاهدوا فينا لنهدينهم سبلنا**﴾ وثانياً: من حجر التضرع ﴿**ادعوا ربكم تضرعا وخفية**﴾ وثالثاً: من الحراق وهو إحراق النفس بمنعها من شهواتها. قال تعالى: ﴿**ونهى النفس عن الهوى**﴾ ورابعاً: من كبريت الإنابة ﴿**وأنيبوا إلى ربكم**﴾ وخامساً: من مسرجة الصبر ﴿**واصبروا إن الله مع الصابرين**﴾ وسادساً: من فتيلة الشكر ﴿**واشكروا نعمة الله عليكم**﴾ وسابعاً: من دهن الرضاء بقضاء ربك، قال تعالى: ﴿**واصبر لحكم ربك**﴾ وقال عليه السلام: «الرضا بالقضاء باب الله الأعظم».

فهذه الحرقة متعلقة بك في حفظ عهد العبودية وإذا وفيت بعهد العبودية فهو أولى أن يفي بعهد الربوبية، كما قال تعالى: ﴿**وأوفوا بعهدي أوف بعهدكم**﴾ فتحفظ هذه المعرفة في قلبك، وهذا الذكر في لسانك، واجعلها نورا باقيا معك في القبر والظلمات والقيامة.

والنوع الثالث: من الأمور التي شبه الله تعالى الإيمان بها: التراب. قال الله تعالى: ﴿**والبلد الطيب يخرج نباته بإذن ربه**﴾ ووجه المشابهة:

الأول: أن التراب ذو أمانة، من أودع فيه شيئا سلم إليه أضعافا، قال الله تعالى: ﴿**في كل سنبلة مائة حبة**﴾ فكذا المؤمن إذا عمل عملا، سلم إليه أضعاف ذلك العمل يوم القيامة، قال الله تعالى: ﴿**إنما يوفى الصابرون أجرهم بغير حساب**﴾.

الثاني: من خاصية الأرض أنها يطرح عليها كل قبيح، ويخرج منها كل مليح، فكذا أرض الإيمان، يطرح عليها قبائح الكفر والذنوب، ثم يخرج منها ثمرات المغفرة والرحمة والرضوان ﴿**فأولئك يبدل الله سيئاتهم حسنات**﴾.

الثالث: من خاصية الأرض أنها كالأم الحاضنة لك، فهي كالمهد، قال الله تعالى: ﴿**ألم نجعل الأرض مهادا**﴾؟ وكالخزانة لك ﴿**خلق لكم ما في الأرض جميعاً**﴾ وكالأم المشفقة عليك ﴿**منها خلقناكم وفيها نعيدكم ومنها نخرجكم تارة أخرى**﴾ فكذا الإيمان، منه يحصل جميع منافعك في الدنيا والعقبى.

النوع الرابع: من الأشياء التي شبه الله تعالى بها الإيمان والقرآن: الماء. قال الله تعالى: ﴿**أنزل من السماء ماء فسالت أودية بقدرها فاحتمل السيل زبداً رابيا ومما يوقدون عليه في النار ابتغاء حيلة أو متاع زَبَد مثله كذلك يضرب الله الحقّ والباطل. فأما الزبد فيذهب جفاء وأما ما ينفع الناس فيمكث في الأرض. كذلك يضرب الله الأمثال**﴾ أي الإيمان والكفر. فالزبد: الكفر، والإيمان: الماء، وفي تقرير وجه المشابهة وجوه:

الأول: الماء يزيل النجاسة عن الثوب ﴿وأنزلنا من السماء ماء طهورا﴾ ﴿وثيابك فطهر﴾ فكذلك الإيمان يزيل نجاسة الكفر والمعصية عن القلب، قال عليه السلام: «الإسلام يجبُّ ما قبله»

الثاني: أن الله تعالى سمى الماء المنزل من السماء رحمة، فقال: ﴿وهدى ورحمة للمؤمنين﴾ وقال: ﴿كتب ربكم على نفسه الرحمة﴾ فلا جرم شبه القرآن والإيمان بالماء لهذا السبب.

الثالث: أن الله تعالى سمى القرآن مباركاً فقال: ﴿وهذا ذكر مبارك أنزلناه﴾ وقال في الماء ﴿ونزلنا من السماء ماء مباركاً﴾ فلا جرم شبه الإيمان وكذا القرآن بالماء لكون كل منهما مباركا.

الرابع: أن الماء شفاء للنفوس، والقرآن شفاء للقلوب، قال الله تعالى: ﴿وننزل من القرآن ما هو شفاء ورحمة للمؤمنين﴾ فهو شفاء لقلوبهم، ورحمة لذنوبهم.

الخامس: كما أنه تعالى هو الذي أنزل الماء من السماء، فلا يقدر عليه أحد سواه.

السادس: كما أن الله تعالى إذا أنزل المطر من السماء، لم يقدر أحد على دفعه، فكذلك لما أنزل القرآن من السماء، لم يقدر أحد على دفعه، وإدخال الباطل عليه ﴿وإنه لكتاب عزيز. لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه﴾.

السابع: [كما] أن المطر لا يقدر مخلوق أن يحصي عدد قطراته، فكذا القرآن لا يحيط أحد بكمال أسراره، ولطائف حقائقه.

الثامن: كما أن المطر ينزل من السماء قطرة قطرة، ثم يسيل في الأرض نهرا نهرا، وبحراً بحراً، فكذلك القرآن، ينزل من السماء آية آية، ونجما نجما، ثم صار المجموع أنهاراً وبحاراً. وفي الخبر: «إن القرآن بحر عميق لا يدرك قعره».

التاسع: كما أن المطر لو نزل من السماء دفعه واحدة لاقتلع الأشجار، وخرب الديار، وكان الفساد فيه أكثر من الصلاح، فكذا القرآن لو نزل جملة واحدة، لضلت فيه الأفهام، وتاهت فيه الأوهام، قال الله تعالى: ﴿لو أنزلنا هذا القرآن على جبل لرأيته خاشعا متصدعا من خشية الله﴾

العاشر: كما أن الله تعالى يحيي الأرض بعد موتها بالمطر، فكذلك أحيا القلوب الميتة بالقرآن، قال الله تعالى: ﴿أو من كان ميتا فأحييناه﴾

الحادي عشر: كما أن المطر الواحد يقع على الأرض فيخرج منه الورد والريحان، وعلى أرض أخرى فيخرج منه الشوك والسم، فكذا القرآن، يقع على قلب المؤمن المطيع فيخرج منه ورد العبودية، وريحان الطاعة، ويقع على قلب الكافر، فيخرج منه سم الكفر، وشوك المعصية. قال الله تعالى: ﴿يضل به كثيرا ويهدي به كثيرا﴾

الثاني عشر: [كما] أن في الماء النازل من السماء غنية عن جميع المياه، فكذلك في القرآن غنية عن جميع الكتب والعلوم.

الثالث عشر: كما أن الماء الكثير إذا انغمس فيه من لا يحسن السباحة هلك، فكذلك القرآن إذا تكلم فيه واحد بغير علم [هلك] قال عليه السلام: «من فسر القرآن برأيه، فليتبوأ مقعده من النار»

الرابع عشر: كما أن الشرب فوق الكفاية يضر ولا ينفع، فكذلك الكلام في القرآن فوق الفهم والفطنة يضر ولا ينفع. قال عليه السلام: «أمرت أن أكلم الناس على قدر عقولهم»

الخامس عشر: إذا نزل المطر زال القحط، وظهر النبات والغذاء والفواكه. وكذلك كان قبل نزول القرآن قحط الدين، فلما نزل القرآن زال القحط في الدين، وظهرت أنواع الغذاء والفواكه للروح، وهو بيان التوحيد والزينة والشرائع

السادس عشر: كما أن الماء يطفئ النار، فكذلك الإيمان والقرآن يطفئان عن المؤمن الذي هو حامل القرآن والإيمان: نار جهنّم.

النوع الخامس من الأشياء التي شبه الله تعالى بها الإيمان: الحبل. قال الله تعالى: ﴿واعتصموا بحبل الله جميعا﴾ ووجه المشابهة من وجوه:

الأول: أن من أراد أن يصعد من الأسفل إلى العلو، وخاف من الانزلاق، فانه إذا تمسك بحبل أمن من ذلك الخوف. فالعبد إذا أراد أن يصعد من سفل البشرية إلى عالم الجلال والكبرياء، وخاف أن ينزلق، قدم عقله، فإذا تمسك بالقرآن، أمن منه.

الثاني: أن الأعمى إذا أراد الذهاب إلى موضع. فإن كان بين مكانه وبين ذلك الموضع حبل ممدود، وتمسك بذلك الحبل، ذهب فارغا من كل خوف، فكذلك العقول البشرية كالأعمى في سلوك سبيل التوحيد والمعرفة، فإذا تمسكت بالقرآن أمنت من الخوف.

الثالث: أن من سقط في البئر فطريق تخليصه أن يرسل إليه حبل، حتى يتعلق به ويصعد، فينجو من المهالك، والأرواح البشرية وقعت في هاوية عالم الأجسام: والملك الرحيم أرسل إليها حبل القرآن، فمن تعلق به وصعد نجا، ومن لم يتعلق به ففي بئر الظلمات وقع وكان من الهالكين.

النوع السادس: من الأشياء التي شبه الله تعالى بها الإيمان: شجرة الزيتون. قال الله تعالى: ﴿وشجرة تخرج من طور سيناء تنبت بالدهن وصبغ للآكلين﴾ وذكروا في وجه التشبية أمرين.

الأول: أنه تعالى إنما شبه الإيمان بهذه الشجرة، لأن هذه الشجرة في أكثر الأمور إنما تنبت في الأمكنة المطهرة، فكذلك المعرفة لا تستقر في كل قلب، بل في القلوب المطهرة.

الثاني: أن شجرة الزيتون يتولد من ثمرتها ذلك الدهن الذي هو في غاية

الصفاء، فكذلك قلب المؤمن يتولد منه الإيمان والمعرفة، وهما أصفى الأنوار وأشرفها.

وأعلم: أن الله قد وعد المؤمنين بعشر كرامات:

الأول: المغفرة. قال الله تعالى: ﴿**قل للذين كفرو إن ينتهوا يغفر لهم ما قد سلف**﴾ والمعنى: إن قبلوا الإيمان، وتركوا الكفر.

وثانيها: الأمن. قال تعالى ﴿**الذين آمنوا ولم يلبسوا إيمانهم بظلم أولئك لهم الأمن وهم مهتدون**﴾.

وثالثها: الهداية. قال تعالى ﴿**إن الذين آمنوا وعملوا الصالحات يهديهم ربهم بإيمانهم**﴾.

ورابعها: الزيادة. قال تعالى: ﴿**للذين أحسنوا الحسنى وزيادة**﴾

وخامسها: الفلاح. قال تعالى: ﴿**قد أفلح المؤمنون**﴾

وسادسها: الثبات. قال الله تعالى: ﴿**يثبت الله الذين آمنوا بالقول الثابت**﴾

وسابعها: الشفاعة. قال تعالى: ﴿**يومئذ لا تنفع الشفاعة إلا من أذن له الرحمن ورضي له قولا**﴾ يعني: قول لا إله إلا الله.

وثامنها: إصلاح الأعمال. قال الله تعالى: ﴿**يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله حق تقاته**﴾ إلى قوله: ﴿**يصلح لكم أعمالكم**﴾

وتاسعها: البشرى. قال تعالى: ﴿**وأبشروا بالجنَّة التي كنتم توعدون**﴾

وعاشرها: كلام الله تعالى ورؤيته يوم القيامة. قال تعالى: ﴿**سلام قولا من رب رحيم**﴾ وقال: ﴿**وجوه يومئذ ناضرة. إلى ربها ناظرة**﴾

الفصل الخامس

في

شرح المباحث المتعلقة بكلمة لا إله إلا الله

وهي وجوه:

المبحث الأول

زعم جماعة من النحويين: أن هذا الكلام فيه حذف وإضمار. ثم ذكروا فيه وجهين.

أحدهما: التقدير: لا إله لنا إلا الله.

والثاني: لا إله في الوجود إلا الله.

وأعلم: أن هذا الكلام غير سديد لوجوه:

أما الأول: فلأنه لو كان التقدير: لا إله لنا إلا الله، لم يكن هذا الكلام يفيد التوحيد الحق، إذ يحتمل أن يقال: هب أنه لا إله لنا إلا الله، فلم قلتم: إنه لا إله لجميع المحدثات والممكنات إلا الله؟ ولهذا السبب فإنه تعالى لما قال: ﴿والهكم إله واحد﴾ قال بعده: ﴿لا إله إلا هو الرحمن الرحيم﴾ لأنه لما قال: ﴿وإلهكم إله واحد﴾ بقي للسائل أن يسأل ويقول: هب أن إلهنا واحد، فلم قلتم: إن إله الكل واحد؟ فلأجل إزالة هذا السؤال قال تعالى بعده: ﴿لا إله إلا هو﴾ ولو كان المراد من قوله: لا إله إلا هو: أنه لا إله لنا إلا هو، كان هذا تكرارا محضا.

وأما الثاني: فهو قولهم: التقدير: لا إله في الوجود إلا الله. فنقول: وأي حامل يحملكم على التزام هذا الإضمار؟ بل نقول: حمل هذا الكلام على ظاهره أولى من ذلك الإضمار الذي ذكرتم. وذلك لأننا لو ألزمنا ذلك الإضمار كان معناه: لا إله في الوجود إلا هو، فكان هذا نفيا لوجود الإله. أما لو أجرينا الكلام على ظاهره، كان هذا نفيا لماهية الإله الثاني. ومعلوم أن نفي الماهية أولى وأقوى من إثبات التوحيد في نفي الوجود، فثبت: أن إجراء الكلام على ظاهره أولى.

فإن قيل: إن نفي الماهية غير معقول، فإنك إذا قلت: السواد ليس بسواد، كنت قد حكمت بأن السواد انقلب إلى نقيضه، وصيرورة الشيء عين نقيضه غير معقول. أما إذا قلت: السواد غير موجود، كان هذا كلاما معقولا، فلهذا السبب أضمرنا فيه هذا الإضمار.

فالجواب: إن قولكم نفي الماهية غير معقول قلنا: هذا باطل. فإنك إذا قلت: السواد ليس بموجود فقد نفيت الوجود، لكن الوجود من حيث هو وجود ماهية، فإذا نفيت الماهية المسماة بالوجود، وإذا كان كذلك صار نفي الماهية أمرا معقولا، وإذا عقل ذلك، فَلِمَ لا يجوز إجراء هذه الكلمة على ظاهرها؟ فإنك إذا قلت: السواد ليس بموجود، فإنك ما نفيت الماهية، وما نفيت الوجود أيضاً، وإنما نفيت موصوفية الماهية بالوجود، فنقول: موصوفية الماهية بالوجود، هل هي أمر مغاير للماهية وللوجود أم لا؟ فإن كانت مغايرة لها كانت تلك المغايرة ماهية، فكان قولنا: السواد ليس بموجود نفيا لتلك الماهية المسماة بالموصوفية، ويعود الكلام المذكور. وأما إن قلنا: إن موصوفية الماهية بالوجود ليست أمرا مغايرا للماهية وللوجود، امتنع توجيه النفي إليها، وإذا امتنع ذلك بقي النفي متوجها إما إلى الماهية، وإما إلى الوجود، حتى يحصل غرضنا من أن الماهية يمكن نفيها، وإذا كان الأمر كذلك صح قولنا: لا إله إلا الله حقا وصدقا من غير إضمار.

المبحث الثاني

قال النحويون: قولنا لا إله إلا الله ارتفع؛ لأنه بدل من موضع « لا » مع الاسم. وبيانه: أنك إذا قلت: ما جاءني رجل إلا زيد، فزيد مرفوع بالبدلية، لأن البدل هو الإعراض عن الأول، والأخذ بالثاني، فصار التقدير: ما جاءني إلا زيد. وهذا معقول، لأنه يفيد نفي المجيء عن الكل إلا عن زيد، وأما قوله: جاءني القوم إلا زيد، فههنا البدلية غير ممكنة، لأنه يصير التقدير: جاءني إلا زيد، وذلك يقتضي أنه جاء كل أحد إلا زيداً. وذلك محال، فظهر الفرق.

المبحث الثالث

اتفق النحويون على أن محل « إلا » في هذه الكلمة محل غير. والتقدير: لا إله غير الله. وهو كقول الشاعر:

وكـل أخ مفـارقـه أخـوه لعمـر أبيـك، إلا الفـرقـدان

والمعنى: كل أخ غير الفرقدين فإنه يفارقه أخوه. قال الله تعالى: ﴿لو كان فيهما آلهة إلا الله لفسدتا﴾ قالوا: التقدير: لو كان فيهما آلهة غير الله لفسدتا. والذي يدل على صحة ما قلناه: أنه لو حملنا إلا على الاستثناء لم يكن لا إله إلا الله توحيداً محضاً، لأنه يصير تقدير الكلام: لا إله يستثني عنهم الله. فيكون هذا نفياً لآلهة يستثنى عنهم الله، ولا يكون الآلهة يستثنى عنهم الله، بل عند من يقول بدليل الخطاب يكون إثباتاً لذلك، وهو كفر. فثبت: أنه لو كانت كلمة إلا محمولة على الاستثناء لم يكن قولنا لا إله إلا الله توحيداً محضاً. ولما اجتمعت العقلاء على أنها تفيد التوحيد المحض، وجب حمل « إلا » على معنى غير حتى يكون معنى الكلام: لا إله غير الله.

المبحث الرابع

قال جماعة من الأصوليين: الاستثناء من النفي لا يكون إثباتا. واحتجوا عليه بوجهين:

الأول: أن الاستثناء مأخوذ من قولك: ثنيت الشيء عن جهته، إذا صرفته عنها، فإذا قلت: لا عالم. فههنا أمران:

أحدهما: الحكم بهذا العدم.

والثاني: نفس هذا العدم. ثم إذا قلت عقيبه: إلا زيدا، فهذا الاستثناء يحتمل أن يكون عائداً الى الحكم بذلك العدم، ويحتمل أن يكون عائداً إلى نفس ذلك العدم. فإذا كان عائداً إلى الحكم بالعدم، لم يلزم تحقق الثبوت، لأن سبب الاستثناء يزول بالحكم بالعدم، وعند زوال الحكم بالعدم يبقى المستثنى مسكوتا عنه، غير محكوم عليه لا بالنفي ولا بالإثبات، وحينئذ لا يلزم الثبوت.

أما إن كان تأثير الاستثناء في صرف العدم ومنعه، فحينئذ يلزم تحقيق الثبوت، لأنه لما ارتفع العدم، وجب حصول الوجود، ضرورة أنه لا واسطة بين النقيضين. وإذا ثبت هذا فنقول: عود الاستثناء إلى الحكم بالعدم أولى من عوده إلى نفس العدم، وهذا يدل عليه وجهان:

الأول: أن الألفاظ وضعت دالة على الأحكام الذهنية، لا على الموجودات الخارجية، فإنك إذا قلت العالم قديم، فهذا يدل على كون العالم قديماً في نفسه، ولكن إذا قلنا: العالم حادث لزم كون العالم قديماً وحادثاً، وذلك محال، بل هذا الكلام يدل على حكمك بقدم العالم، وإذا كانت الألفاظ وضعت دالة على الأحكام الذهنية لا على الموجودات الخارجية كان صرف ذلك الاستثناء الى الحكم بالعدم أولى من صرفه إلى نفس ذلك العدم.

والوجه الثاني في بيان أن عود الاستثناء إلى الحكم بالعدم أولى من

عوده إلى نفس ذلك العدم. أن عدم الشيء في نفسه ووجوده لا يقبل تصرف هذا القائل، بل القابل لتصرفه هو حكمه بذلك الوجود والعدم، وإذا كان كذلك كان عود الاستثناء إلى الحكم أولى من عوده إلى المحكوم به.

الحجة الثانية في بيان كون الإستثناء من النفي ليس بإثبات: هو أنه جاء في الحديث والعرف صور كثيرة للاستثناء مع أنه لا يقتضي الثبوت. قال عليه السلام: «لا نكاح إلا بولي». و«لا صلاة إلا بطهور» ويقال في العرف: لا عز إلا بالمال؛ ولا مال إلا بالرجال. ومرادهم من الكل مجرد الاشتراط. أقصى ما في الباب أن يقال: قد ورد هذا اللفظ في صورة أخرى، وكان المراد أن يكون المستثنى من النفي إثباتاً، لأنا نقول: إنه لا بد أن يكون مجازاً في إحدى الصورتين، إلا أنا نقول: إذا قلنا: إنه لا يقتضي أن يكون الخارج من النفي إثباتاً، بحيث أفاد ذلك، احتمل أن تكون تلك الزيادة مستفادة من دليل آخر، ولا يكون ذلك تركاً لما دل اللفظ عليه، فإن قلنا: إنه يقتضي أن يكون الخارج من النفي إثباتاً بحيث لا يفيد ذلك، لزمنا ترك العمل بما يكون اللفظ دليلا عليه، ومعلوم أن الأول أولى، لأن إثبات الأمر الزائد بدليل زائد ليس فيه مخالفة الدليل، أما ترك ما دليل عليه، فإنه يكون مخالفة للدليل. فثبت بما ذكرنا: أن الاستثناء من النفي لا يكون إثباتاً. وإذا ثبت هذا كان قولنا لا إله إلا الله تصريحاً بنفي سائر الآلهة، ولا يكون اعترافاً بوجود الله. وإذا كان كذلك لم يكن بمجرد هذا القول كافياً في صحة الإيمان.

وههنا إشكال آخر، وهو أننا قد دللنا على أن «إلا» بمعنى غير في هذا الموضع، وإذا كان كذلك كان قولنا لا إله إلا الله معناه: لا إله غير الله. فيصير المعنى نفي إله يغاير الله، ولا يلزم من نفي ما يغاير الشيء، إثبات هذا. وحينئذ يعود الإشكال.

والجواب من وجهين:

الأول: إن إثبات الإله سبحانه كان متفقاً عليه بين سائر العقلاء بدليل قوله: ﴿ولئن سألتهم من خلق السموات والأرض ليقولن الله﴾ فكان ذلك مفروغا منه، متفقاً عليه، إلا أنهم كانوا يثبتون الشركاء والأنداد؛ فكان المقصود من هذه الكلمة نفي الأضرار والأنداد، فأما القول بإثبات الإله للعالم، فذلك من لوازم العقول.

الثاني: إذا سلمنا أن هذه الكلمة كما دلت على نفي سائر الآلهة، دلت على إثبات إلهية الله تعالى، إلا أنا نقول: هذه الدلالة تكون حاصلة بوضع الشرع لا بمفهوم أصل اللغة.

فهذا تمام القول في هذا المقام.

المبحث الخامس

إعلم، أنه يجوز أن يقال: لا رجل في الدار، وأن يقال: لا رجل إلا في الدار. أما على الوجه الأول فإنه يوجب نفي الرجال بالكلية، والدليل عليه: أن قولنا لا رجل: يقتضي نفي ماهية الرجل، ونفي الماهية يقتضي انتفاء كل أفراد الماهية، لأنه لو ثبت فرد من أفراد الماهية لثبتت الماهية، ضرورة أنه متى ثبت فرد من أفراد الماهية، فقد ثبتت الماهية لا محالة. وأما قولنا لا رجل إلا في الدار فهو نقيض قولنا لا رجل في الدار. ولكن قولنا: لا رجل إلا في الدار، يفيد ثبوت رجل واحد، فقولنا لا رجل في الدار، وجب أن يفيد عموم النفي، حتى يتحقق التناقض بين القولين.

والحاصل: أن قولنا لا رجل [في الدار] أقوى في الدلالة على عموم النفي من قولنا لا رجل [إلا في الدار] مع أن كل واحد منها يفيد عموم النفي، ولأجل أن كل واحد منها يفيد العموم، قُرِئ (لا ريب فيه) بالقراءتين،

وكذا قوله: (فلا رفث ولا فسوق ولا جدال) ولأجل أن البناء على الفتح أقوى في الدلالة على العموم، اتفقوا عليه في قولنا لا إله إلا الله.

المبحث السادس

من الناس من يقول: إن تصور الإثبات مقدم على تصور النفي، بدليل: أن الواحد منا يمكنه أن يتصور الإثبات وإن لم يخطر بباله معنى النفي والعدم ويمتنع عليه أن يتصور العدم والنفي إلا وقد تصور أولا الإثبات، وذلك لأن العدم المطلق غير معقول، بل العدم لا يعقل إلا إذا أضيف إلى معين، فيقال: عدم الدار، وعدم الغلام، فثبت: أن تصور الإثبات أصل ومتقدم، وتصور النفي متأخر وفرع. وإذا ثبت هذا فما السبب في أن جعل النفي الذي هو الفرع متقدماً، والإثبات الذي هو الأصل مؤخراً؟

والجواب: أن في تقديم النفي ههنا على الإثبات أغراضا:

الأول: إن نفي الربوبية عن غيره ثم إثباتها له، آكد في الإثبات من إثباتها له من غير نفيها عن غيره، كما أن قول القائل: ليس في البلد عالم غير فلان، أقوى في باب المدح من قولنا: فلان عالم البلد.

الثاني: أن لكل إنسان قلباً واحداً، والقلب الواحد لا يتسع باشتغال شيئين دفعة واحدة، فبقدر ما يبقى مشغولا بأحد الشيئين يبقى محروماً من الشيء الثاني، فقولنا لا إله إلا الله، إخراج لكل ما سوى الله عن القلب، حتى إذا صار القلب خالياً عن كل ما سوى الله، ثم خطر فيه سلطان الله، أشرق نوره إشراقاً تاماً، وكمل استيلاؤه عليه كمالا قوياً.

الثالث: إن النفي الحاصل بـ «لا» يجري مجرى الطهارة، والإثبات الحاصل بـ «إلا» يجري مجرى الطهارة والصلاة، فكما أن الطهارة مقدمة على الصلاة، فكذا وجب تقديم لا إله على قولنا إلا الله، ويجري مجرى تقديم الاستعاذة على القراءة، فكما أن الاستعاذة مقدمة على قراءة القرآن، فكذا هذا.

وأيضاً: إن من أراد أن يحضر الملك في بيت وجب عليه أن يقدم تطهير ذلك البيت عن الأقذار، فكذا هنا، وعن هذا قال المحققون. النصف الأول من هذه الكلمة تنظيف الأسرار، والنصف الثاني جلالة الأنوار عن حضرة الملك الجبار. والنصف الأول انفصال، والنصف الثاني اتصال.. والنصف الأول إشارة إلى قوله: ﴿ففروا إلى الله﴾ والنصف الثاني إشارة إلى قوله: ﴿قل الله ثم ذرهم﴾.

المبحث السابع

إن للقائل أن يقول: إن من عرف أن للعالم صانعاً قادراً عالماً، موصوفاً بجميع الصفات المعتبرة في الإلهية، من الصفات السلبية والثبوتية فقد عرف الله تعالى معرفة تامة، ثم إن علمه بعدم الإله الثاني لا يزيده علماً بحقيقة ذات الإله وصفاته، لأن عدم الإله الثاني ليس عبارة عن وجود الإله الأول، ولا وجود صفات من صفاته، ثم إنا أجمعنا على أن علمه بذات الإله وصفاته لا يكفي في تحقق النجاة، بل ما لم يعلم عدم الإله الثاني لا يحصل العلم المعتبر في النجاة، فما السبب في أن كانت معرفة ذات الله تعالى وصفاته غير كافية في تحقق النجاة، بل كان العلم بعدم الثاني معتبراً في تحقق النجاة؟

والجواب: أنه بتقدير أن يكون للعالم إلهان فالعبد لا يعلم أنه عبد لهذا الإله أو عبد لذلك الإله، أو عبد لهما معاً، فحينئذ لا يكون جازماً بكونه مشتغلا بشكر مولاه وخالقه، بل يجوز أن يكون عابدا لغير خالقه، ومتى كان الأمر كذلك، لم يكن جازماً في تلك العبودية، وتلك الطاعة، أما إذا عرف أنه لا إله للعالم إلا إله واحد، فحيئنذ يكون جازماً بكونه مشتغلا بعبودية مولاه وخالقه، ولهذا السبب لم تحصل النجاة والفوز بالدرجات إلا بمعرفة التوحيد.

المبحث الثامن

إن المكلف إذا تم النظر والاستدلال في معرفة الله تعالى، ثم مات ولم يجد من الوقت ما أمكنه أن يقول فيه: لا إله إلا الله، فههنا لا شك في أنه يموت مؤمناً، لأنه أدى ما وجب عليه، ولم يجد مهلة للتلفظ بهذه الكلمة، فأما إذا تم النظر، والاستدلال في معرفة الله، ووجد من الوقت ما أمكنه أن يقول فيه لا إله إلا الله، ثم لم يقل ثم مات، فهذا الشخص هل مات مؤمناً أم لا؟

من الناس من قال: إنه مات كافراً، لأن صحة الإيمان متوقفة على التلفظ بهذه الكلمة عند القدرة عليه. ومن الناس من قال: إنه مؤمن، لأجل أنه حصل له العرفان التام، وفاسق لأجل أنه كان مأمورا بذكر هذه الكلمة وما ذكرها. والدليل على أنه مؤمن: قوله عليه السلام: «يخرج من النار من في قلبه مثقال ذرة من إيمان» فهذا الشخص قلبه مملوء من الإيمان، فكيف لا يخرج من النار؟

المبحث التاسع

من الناس من قال: تطويل المدَّة من كلمة لا من قولنا لا إله إلا الله، مندوب إليه مستحسن، لأن المكلف في زمان التحديد يستحضر في ذهنه جميع الأضداد والأنداد وينفيها، ثم بعد ذلك يعقب ذلك بقوله: إلا الله، فيكون ذلك أقرب إلى الإخلاص والكمال. ومنهم من قال. بل ترك التحديد أولى؛ لأنه ربما مات في زمان اللفظ بلا، قبل الانتقال إلى كلمة (إلا الله)

والذي عندي: أن المتلفظ بهذه الكلمة إن كان يتلفظ بها لينتقل من الكفر إلى الإيمان، فترك التحديد أولى، حتى يحصل الانتقال من الكفر إلى الإيمان على أسرع الوجوه. وإن كان المتلفظ بها مؤمناً، وإنما يذكرها لتحديد هذه الكلمة، فالتحديد أولى، حتى يحصل في زمان التحديد صور الأنداد والأضداد وعلى التفصيل في الخاطر، ثم ينفيها، ويعقبها بقوله إلا الله فيكون الإقرار بالإلهية أصفى وأكمل.

المبحث العاشر

إن الناس في هذه الكلمة على آراء وطبقات:

فأدناها طبقة: من قالها ليحقن دمه، ويحرز ماله، على ما اقتضاه موجب قوله عليه السلام: «أمرت أن أقاتل الناس حتى يقولوا: لا إله إلا الله، فإذا قالوها عصموا مني دماءهم وأموالهم إلا بحقها، وحسابهم على الله» وهذه درجة اشترك فيها المخلصون والمنافقون. فكل من تعلق بهذه الكلمة نال من بركتها، وأحرز حظاً من فوائدها، فإن طلب بها الدنيا نال الأمن فيها، والسلامة من آفاتها، وإن قصد بها الآخرة جمع بين الحظين، وأحرز بها السادة في الدارين.

والطبقة الثانية: الذين ضموا إلى القول باللسان الاعتقاد بالقلب على سبيل التقليد.

وأعلم: أن الاعتقاد لا يكون علماً؛ لأن العقد ضد الانحلال والانشراح. والعلم عبارة عن انشراح الصدر. قال تعالى: ﴿أفمن شرح الله صدره للإسلام﴾؟ فثبت: أن صاحب التقليد لا يكون عالماً ولا عارفا.

وهل يكون مسلماً؟ فيه الخلاف المشهور بين الأئمة، والله أعلم:

الطبقة الثالثة: الذين ضموا إلى الاعتقاد بالقلب معرفة الدلائل الإقناعية القوية لذلك الاعتقاد، إلا أن تلك الدلائل لا تكون برهانية يقينية، بل إقناعية ظنية.

الطبقة الرابعة: الذين سلموا وأثبتوا تلك العقائد بالدلائل القطعية، والبراهين اليقينية، إلا أنهم لا يكونون من أرباب المشاهدات والمكاشفات ولا من أصحاب مطالعة الآيات.

ثم اعلم: أن الإقرار باللسان درجة واحدة، وأما الاعتقاد بالقلب فله درجات مختلفة بحسب قوة الاعتقاد وضعفه، ودوامه وعدم دوامه، وكثرة

تلك الاعتقادات وقلتها، فإن المقلد ربما كان مقلداً في مجرد أن الله تعالى واحد، وربما زاد عليه وكان مقلداً في ذلك وفي أن صانع العالم قادر عالم.

واعلم: أنه كل ما كان وقوف الإنسان على هذه المطالب أكثر، كان تشويش أمر التقليد عليه أكثر، وذلك لأن الطالب إذا حصل له شعور بهذه المطالب، وحصل له وقوف على هذه المباحث مال إلى العلم وترك التقليد فيعسر عليه التقليد.

أما المرتبة الثالثة - وهي مرتبة تقوية الاعتقاد بالدلائل الإقناعية - فمراتب الخلق فيها متفاوتة غير مضبوطة، وأما المرتبة الرابعة - وهي الترقي من الدلائل الإقناعية إلى البراهين القطعية - فالأشخاص الذين يكونون واصلين إلى هذه الدرجة يكونون في غاية القلة، ونهاية الندرة، لأن ذلك يتوقف على معرفة شرائط البراهين، واستعمالها في المطالب وذلك في غاية العزة وأما المرتبة الخامسة - وهي مرتبة أهل المشاهدات والمكاشفات - فنسبتهم إلى أصحاب البراهين القطعية كنسبة أصحاب القطعية إلى عوام الخلق.

وأعلم، أن عالم المكاشفات لا نهاية له: لأنه عبارة عن سفر العقل في مقامات الجلال الإلهي، ومدارج عظمته، ومنازل كبريائه وقدسه، وإذا كان لا نهاية لهذه المقامات، فكذلك لا نهاية للسفر في تلك المقامات.

وأعلم: أن الإنسان إذا انكشف له أسرار لا إله إلا الله، أقبل على الله، وأخلص في عبادته، ولم يلتفت إلى أحد سواه، فلا يرجو غيره، ولا يخاف سواه، ولا يرى النفع والضر إلاَّ منه، فانقطع بالكلية عمن دونه، وتبرأ من الشرك الباطن، كما تبرأ من الشرك الظاهر، وذلك كله موجب كلمة التوحيد.

ولهذا السبب لما قال لمحمد ﷺ:

﴿ فاعلم: أنه لا إله إلا الله﴾ قال بعده: ﴿واستغفر لذنبك﴾ والمعنى - والله

أعلم ـ: أن الأمر الاستغفار لتقصير وقع في موجب كلمة لا إله إلا الله، إما لغفله تحول دونه أو لعارض شغل عنه، وهو معنى قوله عليه السلام: «إنه ليغان على قلبي فاستغفر الله في اليوم سبعين مرة» وقد روي «مائة مرة» وفي الحديث وجوه:

الأول: إن المراد بالغين: ما يغشى قلبه من غفلة، أو يعرض من فترة، يحكم الطبع البشري فكان عند ذلك يفزع ال الاستغفار.

الثاني: أنه كان عليه السلام أبدا في الترقي، فإذا انتقل إلى درجة أعلى من الدرجة المنتقل عنها، كان يستحقرها في العبودية، فكان يستغفر الله منها.

الثالث: أنه ربما لاح له شيء من تجلي عالم الغيب فيستعظم تلك الدرجة، ويستبهج بها، ثم يصير تعاظمه لها وابتهاجه بها، شاغلا عن الاستغراق في المبتهج به، فكان يستغفر الله من ذلك.

الرابع: أن كل ما لاح له من عالم الغيب، كان يعلم أن الذي لاح له إنما لاح له بقدر قوته وطاقته، وكان يعلم أن قدر عقله وطاقته بالنسبة إلى جلال الله وعلو كبريائه كالعدم، فحينئذ يعلم أن الذي لاح له من كمال الغيب بالنسبة إلى ما لم يلح له، كالعدم بالنسبة إلى الوجود، فكان يستغفر الله من أن يصفه بما يصل إليه قلبه وعقله وفكره وذكره وخاطره.

الفصل السادس

في

فضل المؤمن

اعلم: أن الله سمى المؤمنين ثالث نفسه، في عشرة مواضع: في المراقبة، والولاية، والموالاة، والصلاة، والعزة، والطاعة، والمشاقة، والأذى، والالتجاء، والشهادة.

المقام الأول: في المراقبة

ويدل عليه: قوله تعالى: ﴿وقل اعملوا فسيرى الله عملكم ورسوله والمؤمنون﴾ هدد المذنبين برؤية المؤمنين أعمالهم، كما هددهم برؤية نفسه وفيه لطائف:

الأولى: روي: أن عمر رضي الله عنه خرج ليلة، فسمع امرأة تقول لابنتها: يا ابنتاه، قومي فامزجي اللبن بالماء. فقالت ابنتها: أو ليس قد نهانا عن ذلك أمير المؤمنين؟ قالت: لا يرانا أمير المؤمنين. قالت: أفلا يرانا رب العالمين؟ فلما سمع عمر ذلك خطبها في الغد لابنه، فكان عمر بن عبد العزيز من خير حفدتها.

الثانية: امرأة شاطرة كانت بمكة، قالت: لا أبرح حتى أفتن طاووس اليماني، وكان رجلا جميلا. فعرضت نفسها عليه مرارا، حتى ظنت أنها

تعجبه، فقال طاووس: احضري الليلة، فجاء بها إلى المقام. فقال لها: اضطجعي هنا. فقالت: سبحان الله، ألا يرانا الناس؟ فقال طاووس: أليس يرانا الله في كل مكان؟ فتابت.

الثالثة: قال أبو عبد الرحمن العتبي: خرجت ليلة فإذا أنا بجارية جميلة، فأردتها، فقالت: ويلك، أما لك من زاجر من عقل، إن لم يكن لك نـاهٍ من الدين؟ فقلت لها: لا يرانا إلا الكواكب. فقالت: وأين مكوكبها؟

الرابعة: قال حاتم الأصم: راع نفسك في ثلاثة أوقات، إذا عملت بالجوارح فاذكر نظر الله إليك، وإذا قلت بلسانك فاذكر سمع الله لك، وإذا كنت ساكتا فاذكر علم الله فيك، لأنه قال: ﴿إنني معكما أسمع وأرى﴾

الخامسة: ثلاثة نفر حضروا عند بعض الزهاد، وقالوا: أوصنا. فقال لواحد: ألست تقول: إنه عالم؟ فقال: بلى. قال: إياك أن يعلم منك شيئاً فيفضحك به غدا. وقال للثاني: أليس هو بصير؟ قال بلى. قال: إياك أن يراك على عمل تستحي منه يوم القيامة. وقال للثالث: أليس هو سميع؟ قال: بلى. قال: احذر أن يسمع منك شيئا يردك عن باب رحمته بسببه.

السادسة: قال سفيان: من وجد من نفسه ثلاثة أشياء فليحكم عليها بالسعادة: الهيبة للعزيز الجبار، والحرمة للنبي المختار، والحياء من الأبرار والأخيار.

المقام الثاني: في الولاية

فإنه تعالى جعل المؤمنين ثالث نفسه. فقال: ﴿إنما وليكم الله ورسوله والذين آمنوا﴾ قيل: نزلت في عبد الله بن سلام حين شكا من عداوة اليهود له بعد إسلامه، فنزلت. وقال محمد بن إسحاق: نزلت في عبادة بن الصامت قال: يا رسول الله، تبرأت من حلف اليهود، وتوليت الله ورسوله والمؤمنين عامة، وفيه نكت:

الأولى: إن يوسف عليه السلام قال: ﴿أنت وليي في الدنيا والآخرة﴾ فوجد الملك والعز بسبب ذلك القول الذي هو قائله، وههنا قال الله تعالى للمؤمنين: ﴿إنما وليكم الله ورسوله والذين آمنوا﴾ فأولى أن يرجو المؤمنون بذلك الجنة والمغفرة.

الثانية: قوله: ﴿إنما وليكم الله﴾ يعني حافظكم وناصركم ﴿ورسوله والمؤمنون﴾. ثم قال عليه السلام: «المرء مع من أحب» ثم إن كل مسلم يحب الله، فوجب بحكم ذلك الخبر، أن يكون المسلم أبداً مع حفظ الله لا يفارقه، لسبب أنه أحب الله، فكيف يفارقه حفظ الله مع أن الله وليه وحافظه وناصره؟

الثالثة: هذه الآية دلت على أن الصحابة يحبوننا، لأن الله تعالى جعل المؤمنين أولياءنا، وهي قوله: ﴿إنما وليكم الله ورسوله والذين آمنوا الذين يقيمون الصلاة﴾ ثم أكد ذلك بقوله: ﴿والمؤمنون والمؤمنات بعضهم أولياء بعض﴾ ثم أمرنا أن نحب الصحابة بدليل قوله: ﴿والسابقون الأولون من المهاجرين والأنصار الذين اتبعوهم بإحسان رضي الله عنهم ورضوا عنه وأعد الله لهم جنات تجري من تحتها الأنهار﴾.

فثبت بمجموع هاتين الآيتين: حصول المحبة بيننا وبين الصحابة، والحبيب لا يرضى بعذاب حبيبه، قيل ذلك على أن جمهور الصحابة والتابعين وسلف المؤمنين يكونون شفعاء ذنوب المؤمنين.

المقام الثالث: في الموالاة

قوله تعالى: ﴿فإن الله هو مولاه وجبريل وصالح المؤمنين﴾ وههنا نكت:

الأولى: حكم أن مولى المؤمنين هو: الله، وجبريل، وصالح المؤمنين. ثم أسقط شركة جبريل والمؤمنين فقال: ﴿واعتصموا بالله هو مولاكم فنعم

المولى ونعم النصير﴾ وقال في حق الكافرين: ﴿مأواكم النار هي مولاكم﴾ ثم قال: ﴿لبئس المولى ولبئس المصير﴾ فمن كان الله مولاه فلا يخذل ولا يخزى، ومن كان المؤمنون مولاه فلا يضيع ولا يشقى. قال الكفار لعمر بن الخطاب رضي الله عنه يوم أحد: لنا عزى ولا عزى لكم. فقال عمر رضي الله عنه: «لنا مولى ولا مولى لكم» فنزل على وفق قوله: ﴿ذلك بأن الله مولى الذين آمنوا وأن الكافرين لا مولى لهم﴾.

الثانية: أن الله تعالى سمى النار مولى الكافرين فقال: ﴿النار هي مولاكم﴾ وإنما سمى النار مولاهم، لأنها لا تترك إعانتهم.

الثالثة: قال بعضهم: من كان ربه مولاه لا يعذب، ومن كان ناصره مولاه لا يغلب، ومن كان هاديه مولاه لا يضل، ومن كان ربه مغنيه لا يشقى، ومن كان ربه مولاه لا يضيع ولا يحتاج إلى احد.

المقام الرابع: في الصلاة

قال الله تعالى: ﴿إن الله وملائكته يصلون على النبي يا أيها الذين آمنوا صلوا عليه وسلموا تسليما﴾ فجعل المؤمنين ثالث نفسه في الصلاة على الرسول عليه السلام. وههنا نكت:

الأولى: في الخبر أنه لما نزلت هذه الآية قال عليه السلام: «هنئوني هنئوني» فقالوا: هنيئا لك يا رسول الله فما حظنا؟ فنزل قوله تعالى: ﴿هو الذي يصلي عليكم وملائكته﴾ والإشارة: أنه صلى على الرسول عليه السلام في الدنيا، فما ترك المذنبين حتى صلى الله أيضا عليهم، فيوم القيامة كيف يترك المذنبين محرومين من المغفرة؟

الثانية: الصلاة من الله تعالى على ثلاثة أوجه: عامة، وخاصة، وخاصة الخاصة، فالعامة قوله: ﴿هو الذي يصلي عليكم﴾ والخاصة قوله: ﴿أولئك

عليهم صلوات من ربهم﴾ وخاصة الخاصة قوله: ﴿إن الله وملائكته يصلون على النبي﴾.

الثالثة: جعل الله أهل بيت النبي عليه السلام مساوين له في خمسة أشياء: في المحبة، قال تعالى: ﴿فاتبعوني يحببكم الله﴾ وقال لأهل بيته: ﴿قل لا أسألكم عليه أجراً إلا المودة في القربى﴾ والثاني: في تحريم الصدقة قال عليه السلام: «حرمت الصدقة علي وعلى آل بيتي» والثالث في الطهارة قال الله تعالى: ﴿ما أنزلنا عليك القرآن لتشقى. إلا تذكرة لمن يخشى﴾ وقال لأهل بيته: ﴿ويطهركم تطهيرا﴾ الرابع: السلام قال: ﴿السلام عليك أيها النبي﴾ وقال في أهل بيته: ﴿سلام على آل ياسين﴾ في الصلاة على الرسول وعلى آله. كما في آخر التشهد.

المقام الخامس: في العزة

قال الله تعالى: ﴿ولله العزة ولرسوله وللمؤمنين﴾ وههنا نكت:

الأولى: عزة الله عزة الربوبية، وعزة الرسول عزة النبوة، وعزة المؤمنين عزة التلفظ بكلمة لا إله إلا الله، ثم كما أن عزة الله وعزة رسوله لا تقبلان الذل، فكذلك عزة المؤمنين لا تقبل الذل.

الثانية: لله عزة الإنشاء والتكوين، قال الله تعالى: ﴿إنما أمره إذا أراد شيئاً أن يقول له كن فيكون﴾ وللرسول عزة الدنيا حين أشار للقمر فانشق ببركة دعائه، وللمؤمنين عزة الإيمان والشهادة. ثم إن الأشياء تكونت عند قوله: (كن) والقمر انشق عند دعاء الرسول، فنرجو أن يحصل الغفران والرحمة للمؤمنين عند كلمة الشهادة.

الثالثة: عز المؤمن في أن قيده المعرفة، وصيده الجنة، وعبده الرؤية، فإذا كان للعبد المؤمن رب كاف، وكتاب شاف، ورسول واف، اسمه اسم الله، ولسانه شاهد الله، ونفسه طالبة مرضاة الله، وقلبه محل نظر الله، وسراجه

معرفة الله، وشهادته محبة الله، وبصيرته مشتاقة إلى رؤية الله، فحقيق أن يكون عزه متصلا بعزة الله.

الرابعة: لله العزة سواء أوجد أو أعدم، وللرسول بالولاية، سواء بلغ أو سكت، فكذلك المؤمن له العزة، سواء أطاع أو عصى.

الخامسة: لله العزة بالولاية لقوله: ﴿إن وليي الله الذي نزل الكتاب وهو يتولى الصالحين﴾ وللرسول بالولاية أيضاً لقوله: ﴿النبي أولى بالمؤمنين من أنفسهم﴾ وللمؤمنين العزة أيضاً بالولاية لقوله: ﴿والمؤمنون والمؤمنات بعضهم أولياء بعض﴾.

السادسة: لله العزة بالعلو والعظمة، لقوله: ﴿وهو العلي العظيم﴾ وللرسول بالرفعة لقوله: ﴿ورفعنا لك ذكرك﴾ وللؤمنين بالقبول والرحمة، لقوله: ﴿إن الله يغفر الذنوب جميعا﴾.

السابعة: لله عزة العبودية، لقوله: ﴿وأنا ربكم فاعبدون﴾ وللرسول عزة المتبوعية، لقوله ﴿واتبعوه لعلكم تهتدون﴾ وللمؤمنين عزة العبودية، لقوله: ﴿يا عبادي الذين أسرفوا على أنفسهم لا تقنطوا من رحمة الله﴾

الثامنة: لله الاستغناء، ﴿والله الغني وأنتم الفقراء﴾ وللرسول عز الاغناء ﴿ووجدك عائلا فأغنى﴾ وللمؤمنين عز الإغناء ﴿وإن يتفرقا يغن الله كلاً من سعته﴾.

التاسعة: قال علي رضي الله عنه: من أراد عزاً بغير ذل، وهيبة بغير سلطان، وغنى بغير مال، وحسبا بغير نسب، فليخرج نفسه من ذل المعصية إلى عز الطاعة.

العاشرة: قال هارون الرشيد لمنصور بن عمار: من أعقل الناس، وأجهلهم، وأغناهم، وأعزهم؟ فقال: أعقلهم محسن خائف، وأجهلهم مسيء آمن، وأغناهم القانع، وأعزهم الأتقياء.

المقام السادس: في الطاعة

قال الله تعالى ﴿أطيعوا الله وأطيعوا الرسول وأولي الأمر منكم﴾ وههنا نكت:

الأولى: في الخبر «ما رآه المسلمون حسنا فهو عند الله حسن، وما رآه المسلمون قبيحا فهو عند الله قبيح»، وقال: «لا تجتمع أمتي على ضلالة». وقال عليه السلام: «عليكم بسنتي وسنة الخلفاء الراشدين من بعدي، عضوا عليها بالنواجذ» وقال: «اقتدوا باللّذين من بعدي أبي بكر وعمر» وكل ذلك يدل على أنه كما يجب طاعة الله وطاعة الرسول، فكذلك يجب طاعة أولي الأمر من المؤمنين.

الثانية: قيل: بقاء الدنيا بسيوف الأمراء أو لسان العلماء، فعليك بطاعتهما إلا في معصية الله.

المقام السابع: في المشاقة

قال الله تعالى: ﴿ومن يشاقق الرسول من بعدما تبين له الهدى ويتبع غير سبيل المؤمنين﴾ الآية. وههنا نكت:

الأولى: لله بحور عظيمة يهلك العبد فيها، إن لم يكن له معتصم يتمسك به، فجعل حبل التوحيد سببا للنجاة من البدعة، لقوله: ﴿واعتصموا بحبل الله جميعا ولا تفرقوا﴾ وحبل الإجماع سببا للنجاة من الفتن، لقوله تعالى: ﴿ويتبع غير سبيل المؤمنين﴾ ثم قال: ﴿واعتصموا بحبل الله جميعا ولا تفرقوا﴾

الثانية: قال عليه السلام: «سبع من الهدى، وفيهن الجماعة، من خرج منهن فقد خرج من الجماعة: لا تشهدوا على أهل قبلتكم بكفر ولا بشرك، واتركوا سرائرهم إلى الله، وصلوا على من مات من أهل القبلة. وصلوا الصلوات الخمس في الجماعة خلف كل بر وفاجر. وجاهدوا مع كل خليفة.

ولا تخرجوا على أئمتكم بالسيف. وادعوا لهم بالصلاح ولا تدعو عليهم. وجانبوا الأهواء كلها، فإن أولها وآخرها باطل».

الثالثة: سئل واحد عن القلب السليم فقال: هو الذي دينه بلا شك، ومذهبه بلا هوى، وعمله بلا رياء، وبدنه بلا خصم.

المقام الثامن: في الأذى

يدل عليه قوله تعالى: ﴿إن الذين يؤذون الله ورسوله لعنهم الله في الدنيا والآخرة وأعد لهم عذابا مهينا والذين يؤذون المؤمنين والمؤمنات بغير ما اكتسبوا فقد احتملوا بهتانا وإثما مبينا﴾.

إعلم أن الله نهى عن إيذاء المؤمن كما نهى عن إيذاء نفسه وإيذاء رسوله، ثم أكد ذلك فقال: ﴿وقولوا للناس حسنا﴾ وقال: ﴿وإذا خاطبهم الجاهلون قالوا سلاما﴾ وقال عليه السلام: «المؤمنون قوم بررة، هم المتحابون المتباذلون. والمنافقون قوم فجرة، هم المتقاطعون المتدابرون». وقال عليه السلام لعائشة رضي الله عنها: «إن الله يبغض الفاحش والمتفحش» وفيه نكت:

الأولى: قال الله تعالى: ﴿ويستغفرون للذين آمنوا﴾ ولم يقل: ويلعنونهم ويؤذونهم.

الثانية: قال عليه السلام: «إن الله رفيق يحب الرفقاء».

الثالثة: عاتب الله نوحا حين دعا على قومه بالهلاك فقال: ﴿والمؤمنون والمؤمنات بعضهم أولياء بعض﴾ ولم يقل: أعداء بعض. وقال ابن عمر رضي الله عنه: «إذا لعن العبد دابة تقول الدابة. لعن الله أعصانا لربه».

الرابعة: قال تعالى لرسوله: ﴿فبما رحمة من الله لنت لهم ولو كنت فظا غليظ القلب لأنفضّوا من حولك فاعف عنهم واستغفر لهم﴾ وقال

﴿خذ العفو وأمر بالعرف وأعرض عن الجاهلين﴾ ونهى عن الهمز واللمز فقال: ﴿ويل لكل همزة لمزة﴾ وقال: ﴿ولا تطع كل حلاف مهين هماز مشاء بنميم﴾ وقال لموسى وهارون: ﴿فقولا له قولاً ليناً﴾ وقال تعالى: ﴿فقل هل لك إلى أن تزكى﴾

المقام التاسع: في الالتجاء

قال الله تعالى: ﴿ولم يتخذوا من دون الله ولا رسوله ولا المؤمنين وليجة﴾ فمدح المؤمنين على الجهاد وعلى التولي في ذلك بالمؤمنين، لأن المنافقين كانوا يتولون اليهود، ويتخذونهم وليجة وبطانة، فعليك أن تتولى الله ورسوله والمؤمنين وليجة وبطانة. وفيه نكت:

الأولى: أنه مدح إبرهيم حيث تبرأ من أبيه وشكا عن حاطب بن أبي بلتعه حيث كانت الكفار فقال: ﴿لا تتخذوا عدوي وعدوكم أولياء﴾ وقال: ﴿لا تجد قوماً يؤمنون بالله واليوم الآخر يوادون من حاد الله ورسوله ولو كانوا آباءهم أو إخوانهم أو عشيرتهم أولئك كتب في قلوبهم الإيمان وأيدهم بروح منه ويدخلهم جنات تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها رضي الله عنهم ورضوا عنه أولئك حزب الله ألا إن حزب الله هم المفلحون﴾

فسمى من يتولى الله ورسوله حزب الله، ثم قال: ﴿ألا إن أولياء الله لا خوف عليهم ولا هم يحزنون﴾.

الثانية: قال الواسطي: علامة المؤمن أربعة لا يشكو من المصائب، ولا يتخذ عمله رياء، ويحتمل أذى خلقه ولا يكافئهم، ويداري عباده على تفاوت أخلاقهم.

المقام العاشر: في الشهادة على التوحيد

السؤال الأول:

هو أن الله تعالى شهد لنفسه بالوحدانية، ومن شهد لنفسه، فإن تلك الشهادة لا تقبل في الفقه.

والجواب من وجوه

الأول: أن هذا في الظاهر شهادة، وفي المعنى إقرار، وإقرار المرء على نفسه مقبول. وإنما قلنا: إن هذا إقرار، لأنه لما ادعى الوحدانية في الألوهية، فقد أقر بأن الخلق كلهم عبيده، ورزق العبيد على المولى لازم، فكأنه تعالى أقر على نفسه للخلق كلهم بالرزق، والحفظ والنصرة. ألا ترى أنه قال: **﴿وما من دابة في الأرض إلا على الله رزقها﴾**

الثاني: أن الشهادة عبارة عن قول يدل على شيء دلالة ظاهرة، ثم ذلك القول لا يراد لكونه قولا، بل كونه دالا على ذلك المطلوب. فلا جرم كل فعل قام مقام القول في ذلك التعريف كان شهادة. ثم إن القول الدال لو كانت دلالته قطعية غير محتملة كان أولى بأن يكون شهادة. وإذا ثبت ذلك فجميع المخلوقات دالة على وحدانية الله تعالى وإلهيته دلالة قطعية عقلية، فكانت أولى بأن تكون شهادة، فإذن شهادة الله على التوحيد لأجل أنه خلق الدلائل الدالة على الوحدانية قطعا، وأما شهادة الملائكة وأولي العلم فمعناها شهادة الإقرار والاعتراف، فكانت شهادة الله على ذلك أقوى.

الثالث: هو أن كل مسألة يتوقف العلم بصدق الرسول على العلم بصحتها، فإنه يمكن إثباتها بالدلائل السمعية. ومسألة الوحداينة كذلك، فلا جرم ذكر العلماء أنه يمكن إثبات أن الإله واحد بالدلائل السمعية. وإذا كان الأمر كذلك، كان المقصود من هذه الشهادة أن يستدل بها على وحدانية الله تعالى.

السؤال الثاني:

أنه تعالى نهى العباد أن يمدحوا أنفسهم، فقال: ﴿فلا تزكوا أنفسكم﴾ ثم مدح نفسه، وأثنى على نفسه، فما السبب؟ والجواب من وجوه:

الأول: هو أنه إذا حصل للواحد منا نوع فضيلة، فذلك فضل الله وكرمه، والمستحق للثناء هو الله، حيث أعطى تلك الفضيلة، فلا جرم يقبح من الواحد منا أن يثني على نفسه. أما الحق سبحانه فإنه قد حصلت له صفات الكمال، ونعوت الجلال على وجه يمتنع زواله وتغييره، فظهر الفرق.

الثاني من السبب: إن ما فينا من الخصال الممدوحة لا ينفك عن أضدادها فإن علمنا مشوب بالجهل، وقدرتنا مشوبة بالضعف، وملكنا لغرض الهلاك، وبقاءنا لغرض الغناء، وحياتنا لغرض الموت، وأما صفات الله تعالى فإنها خالية عن أضدادها، فإنه عالم بلا جهل، وقادر بلا عجز وملك بلا زوال، وبقاء بلا فناء، وحياة بلا موت، وعزة بلا ذل. فظهر الفرق.

الثالث: إن الله تعالى إنما نهى عبده عن تزكية نفسه، لأن العبد يقدم الدعوى على إظهار المعنى، فأما الحق سبحانه فإنه كان أظهر المعنى قبل الدعوى بعد إقامة البرهان على المعنى يكون مستحسنا، بخلاف حال العبد، فإن أكثر أحواله يكون بإظهار الدعوى مقدمة على إظهار المعنى.

والله أعلم.

الرابع: أن من أوله نطفة مذرة، وآخره جنية قذرة، وفيما بينهما حمال العذرة لا يليق به أن يمدح نفسه، إنما يحق مدح النفسي لمن هو الأول والآخر والظاهر والباطن.

الخامس: أن حب الإنسان لنفسه غالب، فإذا شرع في مدح النفس استولى ذلك عليه، ثم إن ذلك يعميه ويصمه عن التنبه لما فيه من المعايب فيصير ذلك سببًا في بقائه في ظلمات الحماقات والجهالات، بخلاف الحق سبحانه وتعالى،

فإنه منزه عن النقائص والآفات، فلا يصير مدحه لنفسه سببًا لشيء من المعايب والنقائص.

السؤال الثالث:

لما شهد لنفسه بالوحدانية، فأي حاجة مع حصول شهادته إلى شهادة الملائكة وأولي العلم وما الحكمة في أنه تعالى ذكر بعد شهادة نفسه شهادة الملائكة وأولى العلم؟

والجواب من وجهين:

الأول: روي أنه عليه السلام كان يمشي خلف جنازة، فقال واحد: هذا الميت كان رجلا صالحا، فقال عليه السلام: «واحد» وقال الثاني والثالث كذلك: فقال «اثنان ـ ثلاثة» فلما قال الرابع مثل ذلك قال: «وجبت» فقيل: يا رسول الله، وما التي وجبت؟ فقال: «وجبت مغفرته في كرم الله تعالى والجنة» لأن المؤمنين شهود الله تعالى على وحدانيته، فلو لم تقبل شهادتهم هنا، لصارت شهادتهم بالوحدانية باطلة غير مقبوله،وهو حكيم لا يفعل ذلك. وإذا عرفت هذا فنقول: الله تعالى لما جعل المؤمنين شهود الوحدانية، فلو أظهر ذنبهم ومعصيتهم يوم القيامة كانت شهادتهم مردودة، وذلك لا يليق بحكمة الحكيم. فلما جعلهم في هذه الآية شهودا على وحدانيته، دلّ ذلك على أنه تعالى لا يظهر قبح فعلهم يوم القيامة. اللهم حقق رجاءنا بكرمك.

الثاني: أنه ليس المقصود من ذكر شهادة الملائكة والمؤمنين توقيف هذا المطلوب على شهادتهم، بل المقصود شهادة الله لهم بأنهم يوافقون الله في كل ما وصل إليهم من نهيه وأمره وخبره، والمقصود إظهار شرفهم في كونهم موافقين لله في هذه الشهادة، لا توقيف المطلوب على شهادتهم.

السؤال الرابع:

ما الحكمة في تكرير لا إله إلا الله في (شهد الله) الآية؟

والجواب من وجوه:

الأول: أن المقصود من التكرار التنبيه على أن الإنسان يجب أن يكون مواظبا على ذكر هذه الكلمة في أكثر أوقات عمره.

الثاني: أنه لما حصلت هذه الكلمة أول الآية وآخرها، صار ذلك تنبيها على أنه يجب على العاقل ان يجعل هذه الكلمة مذكورة في أول عمره وآخره، حتى يكون في الدنيا سعيدا، وفي الآخرة حميدا.

الثالث: أن إحدى هاتين الشهادتين كانت قبل خلق الخلائق، والثانية بعد خلقهم.

الرابع: أنه ذكر إحدى هاتين الشهادتين عن نفسه، والأخرى عن خلقه.

الفصل السابع

في

الأحكام الفقهية المتفرعة على قولنا: لا إله إلا الله

اعلم بأن الإيمان لا بد له من أمرين: أحدهما: هو أن الأصل حصول المعرفة بالقلب، وإليه الإشارة بقوله: ﴿فاعلم أنه لا إله إلا الله﴾ وثانيهما: الإقرار باللسان بالتوحيد، وإليه الإشارة بقوله: ﴿قل هو الله أحد﴾ وذلك لأن قوله: (قل) أمر للمكلف بأن يقول بلسانه ما يدل على التوحيد، ثم أكد هذه الدلالة بالسنة الغراء، وهي قوله عليه السلام: «أمرت أن أقاتل الناس حتى يقولوا لا إله إلا الله».

والسبب في أنه لا بد من هذا القول: هو أن للإيمان أحكامًا، بعضها يتعلق بالباطن، وبعضها بالظاهر، فما يتعلق بالباطن هو أحكام الآخرة، وذلك متفرع عن العلم الذي هو باطن عن الخلق، وما يتعلق بالظاهر هو أحكام الدنيا، ولا يمكن إقامتها إلا بعد معرفتنا أنه مسلم، ولا معرفة إلا بالقول باللسان، فصارت المعرفة ركنًا أصليًا في حق الله تعالى، والقول ركنا شرعيًا في حق الخلق، وإليه الإشارة بقول تعالى: ﴿ولا تنكحوا المشركات حتى يؤمنّ﴾ وقال عليه السلام: «من قال لا إله إلا الله مخلصًا دخل الجنة» وقال تعالى: ﴿ولمن خاف مقام ربه جنتان﴾ جنة في الوقت وهي جنة المعرفة ـ وجنة في العقبى ـ وهي جنة الآخرة ـ

واختلف المحققون. فقال الأكثرون: الأولى أن يكون الذكر في الابتداء قول: لا إله إلا الله. وفي الانتهاء الاختصار على ذكر كلمة الله. ومنهم من واظب في الابتداء والانتهاء على ذكر لا إله إلا الله. وحجة هؤلاء: أن عالم القلب مشحون بغير الله، فلا بد من النفى لنفى الأغيار فإذا صار خالياً فحينئذ يوضع له منبر التوحيد، ويجلس على سلطان المعرفة.

وأما الذين اكتفوا في الانتهاء بكلمة ﴿الله﴾ فلهم في ذلك وجوه:

الحجة الأولى: أن نفي الغيب عدم.

الحجة الثانية: من قال: لا إله إلا الله. فلعله حين ذكر كلمة النفي لا يجد من المهلة ما يصل فيه إلى الاثبات. فحينئذ يبقى في النفي غير منتقل إلى الاثبات، وفي الجحود غير منتقل إلى الاقرار.

الحجة الثالثة: أن المواظبة على هذه الكلمة مشعرة بتعظيم الحق، وينفي الأغيار، إلا أن نفي الأغيار من باب الاشتغال، والاشتغال في الأغيار يرجع في الحقيقة إلى شغل القلب بالأغيار، وذلك يمنع من الاستغراق في نور التوحيد، فمن قال: لا إله إلا الله فهو مشتغل بغير الحق ومن قال: الله، فهو مشتغل بالحق. فأين أحد المقامين من الآخر؟

الحجة الرابعة: أن نفي الشيء إنما يحتاج إليه عند حضور ذلك الشيء بالبال، وحضور ذلك الشيء بالبال لا يكون إلا عند نقصان الحال، فأما الكاملون الذين لا يخطر ببالهم وجود الشريك، فقد امتنع أن يكلفوا بنفي الشريك، بل لا يخطر ببالهم ولا يجري في خيالهم إلا ذكر الله، فلا جرم يكفيهم أن يقولوا: الله.

الحجة الخامسة: قال الله تعالى: ﴿قل الله ثم ذرهم في خوضهم يلعبون﴾. فأمره بذكر الله، ومنعه من الخوض معهم في أباطيلهم ولعبهم، والقول بالشريك من الأباطيل واللعب، ونفيه خوض في ذلك الكلام، فكان

الأولى الافتقار على قولنا (الله).

فهذا ما في هذا المقام.

وههنا أنواع من التضرعات:

أحدها: أن نقول: إلهنا، إن موسى عليه السلام سأل أجل الأشياء فقال: ﴿رب أرني أنظر إليك﴾ وسأل أقل الأشياء فقال: ﴿رب إني لما أنزلت إلي من خير فقير﴾. فنحن أيضاً نسألك أجل الأشياء وهي خيرات الآخرة، وأقلها وهو خيرات الدنيا فنقول: ﴿ربنا آتنا في الدنيا حسنة وفي الآخرة حسنة﴾.

وثانيها: يحكى أن رجلاً باع جارية، ثم ندم، واستحيا من المشتري أن يظهر هذه الحالة، فكتب في كفه حاجته ورفعها إلى السماء، فرأى المشتري في المنام [قائلاً يقول له]: إن فلاناً من أحباء الله، وقلبه مشتغل بهذه الجارية، فردها عليه، وأجرك على الله. فلما أصبح الرجل حمل الجارية إليه، وردها عليه. فأراد البائع أن يرد الذهب، فقال المشتري: إن لهذا الثمن ضامنا، وهو خير منك.

إلهنا، وإذا كان ذلك البائع ندم على بيع تلك الجارية، فنحن ندمنا على بيع الآخرة بالدنيا، وإذا كان ذلك البائع قد استحيي من العود، فنحن من كثرة ذنوبنا نيستحيي منك، وإذا كان ذلك البائع قد كتب على كفه شيئاً من حاجته ورفعها إلى السماء، فجميع أعضائنا مكتوب عليها احتياجنا إلى رحمتك، وذلنا بين يديك.

إلهنا، كما ضمنت دين الغرماء فاقبل ديننا، وأسقط عنا تبعات أعمالنا، وافعل بنا ما أنت أهله، يا من لا يشغله شأن عن شأن.

ثالثها: يروى أن الصدّيق رضي الله عنه كان يخافت في صلاته بالليل، ولا يرفع صوته بالقراءة وكان عمر رضي الله عنه يجهر بها، فسأل رسول الله

عليه وسلم أبا بكر عن فعله فقال: من أناجيه يسمع كلامي. وسأل عمر فقال: أوقظ الوسنان، وأطرد الشيطان، وأرضي الرحمن، فأمر رسول الله ﷺ أبا بكر برفع صوته قليلاً، وأمر عمر بخفضه قليلاً.

إلهنا، الإيمان فينا كالرسول، والقلب مثل أبي بكر، واللسان مثل عمر، والقلب يخافت بالذكر كأبي بكر، واللسان يظهر الذكر كعمر، والايمان يأمر القلب الزيادة في الذكر، ويأمر اللسان بإخفاء الذكر، فوفقنا لما تحب وترضى، بفضلك يا أكرم الأكرمين.

الفصل الثامن

في

النطق بالشهادتين حال الموت

روى الإمام محمد بن علي الحكيم الترمذي عن معاذ بن جبل قال: قال رسول الله ﷺ: «ما من نفس تموت فتشهد أن لا إله إلا الله، وأني رسول الله، يرجع ذلك إلى قلب موقن، إلا غفر الله له».

فهذه شهادة شهد بها عند الموت، وقد ماتت نفسه من الشهوات، ولانت نفسه المتمردة من هول الموت وذهب حرصه، وألقى نفسه بين يدي رب العزة، وقدرة رب العالمين، فاستوى منه الظاهر والباطن، فلقي الله مخلصًا بتلك الشهادة، فغفر الله له بتلك الشهادة التي وافق ظاهرها باطنها.

وأما الذي يقوله أيام الصحة فقوله مع التخليط، لأنه يشهد بهذه الشهادة وقلبه مشحون بالشهوات، ونفسه أشرة بطرة، فلا يستحق بذلك القول المغفرة.

فهذا هو التفاوت بين ذكر الشهادة في حالة الصحة، وذكرها في آخر زمان الحياة.

وتمام القول فيه: أن الإنسان الذي يكون قلبه مفتوناً بدنياه، ومأسوراً في الشهوات، يكون سكران عن الآخرة، حيران عن الله، لم يحصل فيه اليقين

البتة؛ لأن قلبه مملوء بالميل إلى غير الله، فلا يحصل فيه الميل إلى الله. أما إذا حصل في القلب اليقين بأن كان الأمر بخلاف ذلك. وذلك لأن اليقين سمي يقيناً لاستقراره في القلب، وهو النور.

يقال: يقن الماء في الحفرة، إذا استقر فيها. وإذا استقر النور دام، وإذا دام صارت النفس ذات بصيرة، فاطمأن القلب بجلال الله، ثم انقطع عن غير الله، فوقف هناك عاجزاً. فاستغاث بالله صارخاً مضطراً، فأجابه الحق، فإنه يجيب دعوة المضطرين، فتفرق ذلك النور المتلألئ في القلب، فانمحقت به ظلمات الاشتغال بغير الله، فيصير الملكوت مشاهداً له، وهو قول حارثة لرسول الله ﷺ: «كأني أنظر إلى عرش ربي بارزاً» فقال له رسول الله ﷺ: «عبد نور الإيمان قلبه»

ومما يحقق ما قلناه: قوله عليه السلام: «من قال: لا إله إلا الله وحده لا شريك له، له الملك وله الحمد يحيي ويميت وهو على كل شيء قدير، مخلصاً بها روحه، مصدقاً بها قلبه ولسانه، فتقت له السموات فتقاً، حتى ينظر الرب إلى قائلها من أهل الدنيا».

وعن زيد بن أرقم قال: قال رسول الله ﷺ: «من قال: لا إله إلا الله مخلصاً دخل الجنة. قيل: يا رسول الله، وما إخلاصها؟ قال: أن تحجزه عن المحارم» وقال عليه السلام: «أخلص يكفيك القليل»

وعن زيد بن أرقم قال: قال رسول الله ﷺ: «إن الله عهد إلي ألا يأتيني أحد من أمتي بلا إله إلا الله، لا يخلط بها شيئاً إلا وجبت له الجنة: قالوا: يا رسول الله، وما الذي يخلط بها؟ قال: حرصاً على الدنيا، وجمعاً لها، ومنعاً لها، يقول بقول الأنبياء، ويعمل عمل الجبابرة».

فالحاصل: أنه لا بد من اليقين عند المتكلم بهذه الكلمة، حتى تكون نافعة، ولا يحصل اليقين إلا بموت الشهوات، ولا يحصل موت الشهوات إلا بأحد طريقين:

أحدهما: أن يروض نفسه حتى تموت شهواته حال حياته.

والثاني: إن ماتت شهواته عند وفاته، وعظم رجاؤه وخوفه من ربه، وانقطع نظره عن غير الله بالكلية اضطراراً، فإذا تكلم ونطق بهذه الكلمة في تلك الحالة استوجب المغفرة.

فلهذا السبب استحب السلف أن يلقنوا المحتضر هذه الكلمة. قال عليه السلام: «لقنوا موتاكم» فإن الإنسان عند القرب من الموت تموت شهواته، ويحصل له نور اليقين، فصارت هذه الكلمة مقبولة منه: وأما الأول وهو الذي يروض نفسه، فقد فتح الله له «روزنة» إلى الغيب، فركبته أهوال سلطان الجلال، فينطق بها عن القلب الصافي، فهو بالمغفرة أولى.

وعن عبدالله بن جعفر عن أبيه قال: كان رسول الله ﷺ يقول: «لقنوا موتاكم لا إله إلا الله الحليم الكريم، سبحان الله رب السموات ورب العرش العظيم، الحمد لله رب العالمين». قالوا: يا رسول الله، فكيف هي للحي؟ قال: «هي أجود وأجود» وكان أهل البيت يسمون هذه الكلمات: كلمات الفرج. فيتكلمون بها في النوائب والشدائد فيجيئهم الفرج وفيه زيادة: «لا إله إلا الله العلي العظيم»

وعن مكحول: أن كلمات الفرج: «لا إله إلا الله العلي العظيم، لا إله إلا الله الحليم الكريم، سبحان الله رب السموات السبع ورب العرش العظيم، الحمد لله رب العالمين»، وقال علي بن أبي طالب رضي الله عنه: قال لي رسول الله ﷺ: «ألا أعلمك كلمات إذا قلتها غفرت لك ذنوبك، وإن كانت مثل عدد الذر من الخطايا: لا إله إلا الله العلي العظيم، سبحان الله رب السموات ورب العرش العظيم، الحمد لله رب العالمين».

الفصل التاسع

في
النجاة من الغم

قال جعفر بن محمد الصادق: عجبت لمن ابتلي بأربع كيف يغفل عن أربع: عجبت لمن أعجب بأمر، كيف لا يقول: (ما شاء الله لا قوة إلا بالله) وأنه تعالى يقول: ﴿ولولا إذ دخلت جنتك قلت ما شاء الله لا قوة إلا بالله﴾ .. وعجبت لمن خالف قوماً كيف لا يقول: (حسبي الله ونعم الوكيل). والله تعالى يقول: ﴿الذين قال لهم الناس إن إن الناس قد جمعوا لكم فاخشوهم فزادهم إيماناً وقالوا حسبنا الله ونعم الوكيل. فانقلبوا بنعمة من الله وفضل لم يمسسهم سوء﴾ وعجبت لمن مكر به كيف لا يقول: (وأفوض أمري إلى الله إن الله بصير بالعباد) والله تعالى يقول: ﴿فوقاه الله سيئات ما مكروا وحاق بآل فرعون سوء العذاب﴾. وعجبت لمن أصابه هم أو كرب لا يقول: ﴿لا إله إلا أنت سبحانك إني كنت من الظالمين﴾ فيقول الله: ﴿فاستجبنا له ونجيناه من الغم وكذلك ننجي المؤمنين﴾

وقال سفيان بن عيينة: إن الله لما قال: ﴿وكذلك ننجي المؤمنين﴾ فقد وعد كل مؤمن يقول: ﴿لا إله إلا أنت سبحانك إني كنت من الظالمين﴾ أن ينجيه من الغم. ومعلوم بالضرورة بأن الله لا يخلف الميعاد.

الفصل العاشر

في
أن عقول الخلق قاصرة عن معرفة الله تعالى

لما كان كل ما تتصور النفس، فالله بخلافه، فلم يتمكن العقل والنفس من الإشارة إلى حقيقة معلومة بأن حقيقة الإله هي هذه الحقيقة.

ويروى عن سهل بن عبدالله، بأنه سُئل عن ذات الله فقال: ذات الله موصوفة بالعلم، غير مدركة بالإحاطة، وقد حجب الخلق عن معرفة كنه ذاته، ودلهم عليه بآياته، والقلوب تعرفه، والعقول لا تدركه، ينظر إليه المؤمنون بالإبصار من غير إحاطة، ولا إدراك نهاية.

وروي عنه أيضاً أنه قال: غاية المعرفة الدهشة والحيرة.

وقال الشبلي: من أشار إليه فهو ثنوي، ومن كيفه فهو وثني، ومن نطق فيه فهو غافل، ومن سكت عنه فهو جاهل، ومن وهم أنه واجد فهو فاقد، وكل ما ميزتموه بأفهامكم، وأدركتموه بعقولكم، فهو مصروف مردود إليكم، محدث مصنوع مثلكم.

واعلم أن من الناس من احتج في هذه المسألة بآيات، منها قوله تعالى: ﴿وما قدروا الله حق قدره﴾ قال أهل التفسير: وما عرفوه حق معرفته. مِنْ قدر الثوب إذا حزره وأراد معرفة مقداره.

واعلم، أن هذا الاستدلال ضعيف، لأن هذه الآية وردت في كتاب الله تعالى في ثلاثة مواضع:

أولها: في سورة الأنعام ﴿وما قدروا الله حق قدره إذ قالوا: ما أنزل الله على بشر من شيء﴾ فهؤلاء الذين قالوا: ﴿ما أنزل الله على بشر من شيء﴾ كانوا منكرين كل النبوة، ومن كان كذلك كان كافراً، فقوله: ﴿وما قدروا الله حق قدره﴾ عائد إلى هؤلاء.

وثانيها: قال الله تعالى في سورة الحج: ﴿يا أيها الناس ضرب مثل فاستمعوا له: إن الذين تدعون من دون الله لن يخلقوا ذباباً ولو اجتمعوا له وإن يسلبهم الذباب شيئاً لا يستنقذوه منه ضعف الطالب والمطلوب. وما قدروا الله حق قدره﴾. فلما كان الكلام مع عبدة الأوثان كان هذا الكلام قائداً إليهم.

ثالثها: قال الله تعالى في سورة الزمر: ﴿قل أفغير الله تأمروني أعبد أيها الجاهلون﴾ إلى قوله: ﴿بل الله فاعبد وكن من الشاكرين﴾ ثم قال بعد هذا: ﴿وما قدروا الله حق قدره﴾ فيكون هذا الكلام عائداً إلى الذين أشار إليهم قبل هذه الكلمة بقوله: ﴿أفغير الله تأمروني أعبد أيها الجاهلون؟﴾ وإذا ثبت هذا فقوله: ﴿وما قدروا الله حق قدره﴾ عائد في الأولى إلى منكري النبوات، وفي الثانية والثالثة إلى عبدة الأوثان، فلا يلزم من وصف الكفار بهذا الوصف كون المؤمنين كذلك موصوفين به.

ومما اشتهر التمسك به في هذه المسألة: قوله تعالى في سورة طه: ﴿يعلم ما بين أيديهم وما خلفهم ولا يحيطون به علماً﴾ وأجيب عنه بأن قيل: لم لا يجوز أن يكون المراد من الآية أنه تعالى يعلم ما بين أيديهم وما خلفهم ولا يحيطون علماً بما بين أيديهم وما خلفهم؟ فالضمير في قوله تعالى: ﴿به﴾ لا يكون عائداً إلى الله، بل عائداً إلى ما بين أيديهم وما خلفهم، لأن عود الضمير إلى أقرب المذكورين أولى.

واعلم أن العمدة في هذه المسألة أن الله سبحانه غير متناه في الذات والصفات، والعقل متناه في الذات والصفات، والمتناهي لا سبيل له إلى إدراك غير المتناهي، وهذه هي النكتة المستحسنة، ونحن نشرحها لتظهر قوتها إن شاء الله فنقول:

الحجة الأولى: العقل عاجز عن معرفة كونه تعالى قديماً أزلياً، وذلك لأن كل ما يستحضره العقل استحضاراً على سبيل التفصيل من مقادير الأزمنة، فذلك متناه. مثلاً: نفرض قبل هذا الوقت ألف ألف سنة، ونفرض بحسب كل لمحة من هذه المدة ألف ألف سنة، وهكذا إلى أقصى ما يقدر الوهم والخيال على استحضاره ثم إذا تأمل العقل عرف أن كل ذلك متناه، والحق سبحانه إنما كان قديماً أزلياً لأنه كان موجوداً قبل هذه المدة التي أحاط العقل والخيال بها. فثبت: أن كل مقدار يصل العقل والخيال إليه، فالحق سبحانه ليس قديماً باعتبار أنه كان موجوداً فيما وراء ذلك الوقت، بل باعتبار أنه كان موجوداً فيما وراء ذلك، فإذاً لا سبيل للعقل البتة إلى معرفة القدم والأزل. وإذا عرفت هذا في كونه أزلياً قديماً فاعرف في كونه دائماً أبدياً.

فإذاً العقل لا سبيل له البتة إلى معرفة كونه دائماً أبداً على سبيل التفصيل، فإن كل ما يشير العقل إليه فأزليته وأبديته خارجتان عن ذلك المقصود.

وأيضاً: إذا قلنا: إنه موجود ليس بجوهر ولا عرض، ولا حال ولا محل، فهذا ليس يقتضي معرفة ذات الحق سبحانه وتعالى، لأنا أردنا بقولنا: موجود، ما يناقض العدم، وهذا المفهوم المناقض للعدم، أمر يصدق على جميع الموجودات، وحقيقة الحق سبحانه وتعالى لا توجد في شيء سواه، فالعلم بكونه موجوداً ليس علماً بحقيقته المخصوصية. وأما علمنا بكونه ليس جوهراً ولا عرضاً ولا جسماً فهذا علم بعدم هذه الأشياء، وليس علماً بحقيقته، لأن حقيقته ثابتة متحققة، والسلب لا يكون نفس الثبوت.

فثبت بمجموع ما ذكرنا أنه لا سبيل للعقول إلى معرفة حقيقة الله سبحانه وتعالى.

ومما يحقق ما ذكرنا: أن العقلاء اتفقوا على أن كل صفة شاهدها الحس، وأدركها العقل في المكونات، فلو وصف أحد بها الحق صار جاهلاً، فإذا لا طريق له إلى معرفة الحق إلاّ بنفي كل ما عرفه، ولهذا اتفقوا على أن أحسن كلمة قيلت في التوحيد ما قاله علي بن أبي طالب رضي الله عنه وهي: «وأن تعرف كل ما يتصور في ذهنك، فالله سبحانه بخلافه»

ثم قال المحققون: في معنى كل ما تتصور في ذهنك فالله بخلافه، لو تصور في ذهنك من ذلك الخلاف شيء، فالله تعالى بخلافه، ثم لو تصور في هذه المرتبة الثانية أمر آخر، لزم نفيه، فلم يبق للعقل في طريق معرفة الله سبيل إلا أن ينفي كل ما يقع في خاطره، ثم إذا وقع من هذا النفي شيء اشتغل بنفيه أيضاً، وهكذا في النفي الثالث، والنفي الرابع إلى ما لا نهاية. فلو نفى أبد الآبدين ودهر الداهرين لكان مشغولاً بهذا النفي. وإذا كان الأمر كذلك بقي الحق منزهاً عن لواحق الفكر، واشارات العقل، وعلائق الضمير.

الحجة الثانية: وهي أن الإنسان عاجز عن معرفة نفسه.

فإن قيل: إن نفسه هي هذا الهيكل الشاهد. فهو باطل من وجهين:

الأول: إن الإنسان قد يعرف ذاته حال ما يكون غافلاً عن جميع أعضائه الظاهرة والباطنة، والمعلوم مغاير لما ليس بمعلوم.

والثاني: أن ذاته من أول عمره إلى آخره شيء واحد، وأجزاء بدنه من أول عمره إلى آخر عمره غير باقية، والباقي مغاير لغير الباقي.

فثبت، أن الإنسان ليس عبارة عن هذا الهيكل المحسوس.

ثم بعد هذا يحتمل أن يقال: إنه جسم في داخل الهيكل، إما في القلب فقط، وإما في الدماغ فقط، أو يكون مساوياً في كل البدن. ثم ذلك الجسم أهو من جنس الأجسام التي تولد البدن عنها أم هو جسم مخالف لهذه

الأجسام في الماهية والحقيقة؟ ويحتمل أيضاً أن يقال: إنه ليس بمتحيز ولا حال في المتحيز، بل هو مدبر لهذا البدن على ما يقوله الفلاسفة.

واعلم: أن هذه الاحتمالات بقيت من الزمان الأقدم إلى الآن، وبعدُ ما زالت الشكوك والشبهات، ولا شك أن أعرف المعارف [هو] في الشيء المشار إليه بقولي: أنا، فإذا كان هذا حالي في معرفة أظهر الأشياء، فكيف يكون حالي في معرفة أبعد الأشياء مناسبة عن علائق العقول وروابط الخيالات؟

وتحقيق الكلام فيه: أن العقل كالشمع، ولا شك أن كل ما كان أقرب إلى الشمع كان ضره أكثر مما بعد عنه، وأقرب الأشياء إلى الشخص نفسه، فإذا كان نور العقل أضعف من أن يبصر ذاته؛ فكيف يدرك حضرة الجلال مع بعده عنها بغير نهاية؟

واعلم: أنه كما وقعت الشبهات المذكورة في معرفة النفس، فقد وقعت أيضاً في معرفة حقيقة الزمان وحقيقة المكان، وتحير الخلق أن القوة الباصرة كيف تبصر بحصول الشبح أو بخروج الشعاع؟ وكذا البحث عن القوة السامعة، والقوة الذائقة، وتحيروا أيضاً في البحث عن كيفية التخيلات. فإن هذه الصور المتخيلة إن لم يكن لها وجود أصلاً، فكيف يكون حصول التمييز والتعيين فيها؟ وإن كان لها وجود فهل هي قائمة بأنفسها، أو محلها شيء مجرد أو محلها جسم؟ والكل محال ممتنع.

ولما كانت معرفة الخلق بهذه الأمور الظاهرة الجليلة، بلغت حداً من الصعوبة إلى هذا الحد، فما ظنك بمعرفتهم بمن تقدر عن مناسبات العقول والأفكار، وتنزه عن مشابهات الخيالات والأنظار؟

الحجة الثالثة: العقل لا يتصرف إلا فيما يكون في زمان أو مكان، لأن كل ما أدركه فإنه يدركه في الماضي أو في المستقبل أو في الحال - وكل ذلك تحت الزمان - وكل ما يتصوره، فإنه إنما يتصوره إما ههنا أو هناك - وكل

ذلك بحسب المكان ـ وإذا قلت: الحق سبحانه بخلاف هذه الأشياء، فمعرفته هذه المعرفة، ليس إلا نفي ما عرفته وتصورته.

فالحاصل فيه نفي غير الحق. ونفي غير الحق لا يكون هو عين وجدان الحق.

[تم كتاب أسرار التنزيل وأنوار التأويل للإمام
فخر الدين الرازي محمد بن عمر بن الحسين
رضي الله عنه]

الفهرس

الصفحة

مقدمة المحقق

موضوعات الكتاب المحقق

وقفية الأمير غازي للفكر القرآني
THE PRINCE GHAZI TRUST FOR QUR'ANIC THOUGHT

كتاب الفراسة

مناقب الإمام الشافعي

عصمة الأنبياء

اعتقادات فرق المسلمين والمشركين

أصول الدين للرازي

الإشارة في علم الكلام

الناشر







٩ درب الأتراك خلف الجامع الأزهر الشريف - ت: ٢٥١٢٠٨٤٧